الباب الثالث

الأدب الإسلامي في ديوان الإلوري

obeikan.com

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

الالتزام الأدبي في ديوان الإلوري

الالتزام : من لزم كسمع ، لزما ولزوما ولزاما ولزامة ولزمانا ، ولازمه ملازمة ولزاما ، فالتزمه وألزمه إيّاه فالتزمه ، وهو لزمة كهمزة ، إذا ألزم شيئا لا يفارقه ، وككتاب الموت والحساب ، والملازم جد والفيصل كلزم ككتف وضربة لازم لازب ، والتزمه اعتنقه ، وكمنبر خشبتان تشد أوساطهما بحديد[1].

ويذهب الزمخشري مذهب التأويل والتوسّع لرفع الكلمة من الاستعمال الحقيقي إلى المجازي لتوليد الاصطلاح ، فيقول :

ومن المجاز التزمه[2] اعتنقه ، ومنه ما يقال لما بين الكعبة والحجر الأسود ، لأنّ الناس يعتنقونه ، أي يضمونه إلى صدورهم[3] .

وجاء في كتب السير أنّه ﷺ لما رجع جعفر يوم خيبر قبله والتزمه واعتنقه[4] .

يقول الشاعر يعدد مناقب فقيده :

متواضع لله معتصم به أبدا وملتزم على الأذكار[5]

---

(1) الزاوي الطاهر أحمد ، ترتيب القاموس المحيط على طريق المصباح المنير وأساس البلاغة . مادة « لزم »

(2) الزمخشري ، الكشاف ص : ١٣ .

(3) الفيومي ، أحمد بن محمد ، المصباح ، مادة « لزم » ، ص:٥١٢.

(4) ابن هشام ، السيرة النبوية. ٤١٤/٢

(5) الوزير جنيد ، ديوانه: ديوان القصائد ، مخطوط بمكتبة الكاب ، قافية الراء .

بمعنى أنّه ظلّ يتذلّل لله ، ويشدّ به عصمته ، ويداوم أوراده وأذكاره ، ولا يلهو عنها مهما كانت الأحوال .

وواضح أنّ «الالتزام» في المفهوم المعجمي يؤدي معنى الاستقامة والمداومة على شيء ، أو الإلزام عليه ، والإجبار على فعله ، وهو ما ذهب إليه جمهور القدامى والمعاصرين ، ونرى منهم من يقول :

إنّ لأديب لا يستطيع أن يلتزم الأدب باحترام التزاماته والنظر فيها إلا إذا توسّل إلى ذلك بالقيم الأدبية الرفيعة ، فالأدب لا يمكن أن يضع في مراتبه العليا أديبا إذا استخدم أدبا رخيصا أو فنا رديئا مهما يكن شرف الغرض الذي يهدف إليه[1] .

ويبالغ غيره فيرى :

أن التزام الأشكال الفنيّة أوجه من القيم والمثل ، على أنّ الالتزام في الأدب على شرف غايته ونيل مقصده ودلالته على شعور الأديب بواجبه نحو جماعته وعصره لا يكافي الأديب في كلّ الأحيان ، بل العجيب أنّ «الأدب» أو «الفنّ» بمقياسه العام خارج عن نطاق البيئة والجيل ، قلّما يلتفت إلى الدافع الكريم التفاته إلى القيمة الأدبية والفنيّة الخالصة . [2]

والملحوظ أنّ هذا الاتجاه يباين مقصود الأدباء الإسلاميّين في الالتزام على نحو ما ورد في معارض كلامهم ومجمله : ما اختاره الإنسان ثوابت عقله بعد الاقتناع بها سواء أكان من موروثاته أم مما اقتضبه في واقع تجاربه وخبراته عبر حياته واحتكاكه بالعناصر التي يتفاعل معها من مظاهر البيئة أو الطبيعة ، وهذا المفهوم الدقيق يؤتي الدلالة والاصطلاح بأنّ الالتزام هو التمسّك بقضايا شريفة نبيلة ، والتضحية في سبيل بقاء الدّين والوطن والجنس ، فلا يضجر يوم البلاء

---

(1) توفيق الحكيم ، فن الأدب ، ص: ٣٠٦.

(2) المرجع السابق ، ص: ٢٠٨.

ولا يبطر عند النصر والغلبة والعزّة ، وعلى ضوء هذا يقول أحد رواد هذا المنهج :

إنّ الالتزام في منظور الأدب الإسلامي تجارب حية في وجدان الأديب وفكره اللذين تشربا التعاليم الإسلامية بحيث صارت هذه التعاليم مرادا طبعيا لتجاربه التي تتسع لكلّ معاني الوجود والحياة[1] .

وبهذا البعد وصف الله عباده المؤمنين ملتزمين في مواقفهم لا يزحزحهم بريق الذهب عن إيمانهم ، ولا ألم الحديد والنار والجلد ، ما دامت العقيدة والحقّ في الله ، يقول عزّ من قائل : ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ (الإسراء:٥٧) . قال أبو حامد الغزالي :

« إنّ العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأنّ أقرب العباد إلى الله تعالى أحبّهم له ، والحبّ يغلب الرجاء ، ويعالج بأن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل معالجا علة بما يضادها لا بما يزيد فيها ، فإنّ المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلّها ، وخير الأمور أوساطها »[2] .

والخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، ومن وثق أنس بالله ، وملك الحقّ قلبه ، وصار ابن وقته مشاهد الجمال الحقّ على الدوام ، ولم يبق التفات إلى المستقبل ، فلم يكن له خوف ولا رجاء بأن صار حاله أعلى من الخوف والرجاء ، فإنهما يمنعان زمام النفس عن الخروج إلى رعوناتها ، واستقلال كلّ منها بذاته داء معضل يصعب علاجه ، فإن كان الغالب على القلب داء أمن مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله ، فالرجاء أولى به [3] .

---

(1) دكتور مصطفى هدارة ، الالتزام في الأدب الإسلامي ، منشورات الحرس الوطني بالمملكة العربية السعودية ، عام ١٤٠٩هـ ، ص:٢٠.

(2) الغزالي ، أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، دار الفكر ، ص ١٢٣ ، ١٢٤.

(3) الغزالي ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

ولذا حذّرهم المولى عن التردي في إحدى الهاويتين ، وأن يقفوا عند الاستقامة ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (الحديد:٢٣) ، يقول الإمام الزمخشري : تعليقا على الآية :

إنّكم إذا علمتم أن كلّ شيء مفقود مكتوب عند الله قلّ سؤالكم على الفائت ، وفرحكم على الآتي ، لأنّ من علم أن ما عنده مفقود لا محالة لم يتفاقم جزعه عند فقده ، لأنّه وطّن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه ، وأن وصوله لا يفوته بحال لم يعظم فرحه عند نيله[1] .

ويقول النسفي مختاراً هذا الموقف :

وليس أحد إلاّ وهو يفرح عند منفعة تصيبه ، ويحزن عند مضرة تنزل به ، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكرا والحزن صبرا ، وإنما يذمّ من الحزن والجزع المنافي للصبر ، ومن الفرح الأشر المطغي الملهي عن الشكر »[2] .

ولاحظ عليه ابن عاشوراء ، أن لا يكون ذلك مدعاة التراخي والكسل والدعة عن السعي في الخير والمجد :

واعلم أنّ هذا مقام المؤمن من الأدب بعد حلول المصيبة ، وعند انهيال الرغبة ، وهو لا يحزن على ما فات ولا يبطر بما ناله من خيرات ، وليس معنى ذلك أن يترك السعي لنوال الخير واتقاء الشرّ قائلا : إن الله كتب الأمور كلّها من الأذان ، لأنّ هذا إقدام على إفساد ما فطر عليه »[3] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« قاربوا وسدّدوا ، واعلموا أنّه لن ينجو أحد منكم بعمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : « ولا أنا ، إلاّ أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

---

(1) الزمخشري ، الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، دار الفكر ، ٦٦/١.

(2) النسفي ، تفسير النسفي ، ٤٠٢/٣.

(3) ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ٤١٢/٢٧.

وجاء في شرح الحديث ما يؤكد هذا المعنى «والمقاربة» القصد الذي لا غلوّ فيه ولا تقصير ، «والسداد» الاستقامة والإصابة ، والاستقامة لزوم طاعة الله تعالى .[1]

وقد نشأ هذا الاتجاه الالتزامي على يدي الرسول ﷺ ، فوسّع دائرته ، وجلّى حقيقته ببدائع قوله ، وجلائل فعله ، ليس في العهد المدني فقط ، بل منذ فجر الدعوة الإسلامية ، وعندما وضع ﷺ لبنته للتعبير عن معنى سيادة العقيدة ورفعها فوق الروابط الأخرى حتى كان الابن في صفوف المؤمنين يجاهد أباه وهو بين المشركين من أجل الدفاع عن الحقّ والعدالة ، وتحرير الإنسان من عبودية غيره سواء عندهم النصر والغلبة أو البلاء والاستشهاد .

وعلى هذا الضوء أشاد الشعراء الإسلاميون بهذا الاتجاه في ظروف مختلفة ، وكانت قصائدهم ضربة لازب على النوازع التي تثبط العزائم الإنسانية في حضيض الوهاد دون ارتقائها إلى القمة الشاهقة .

وبهذا الفهم المعقول يبدو الالتزام وليس نقيضا للحرية وعدوّا لها ، وإنما هو شيء منظّم لها ، وصمام أمن يحرس انحرافاتها ، ويبرز لها معالم الطريق ، ويقودها إلى مشارف السّعادة الحقيقية ، سعادة العقلاء المتزنين ، لا سعادة المجنون الذي تركوه في مصنع الزجاج على حدّ تعبير الشاعر الفيلسوف المسلم محمّد إقبال :

قد يسميه البعض أدبا ملتزما ، وقد يسميه الآخرون أدبا هادفا ، ونحن نسمّيه وجهة نظر إسلامية في الأدب ، فالمسلم محاسب على كلّ قول أو فعل مع عدم تجاهل «عامل النية» ، إنّ حامل القلم في ديننا سوف يسأل لماذا وفيم كتب ، وإلى أي غاية كان يهدف؟ والذي يشرع سيفه مسئول لم يشرعه ، وفي وإلى أي هدف يرمي؟ والمتحدّث بالكلمة والباحث عن الحقيقة والساهر في معمل

---

(1) محيي الدين ، أبو زكرياء يحيى بن شرف الدين ، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، ص: ٦٠.

تجاربه ، والقائم على تجارته ، والقائم بأي عمل من الأعمال ، كلّ هؤلاء مسئولون عن نظام الوسيلة وشرف المقصد[1] .

فالالتزام الأدبي إذًا هو سلوك منتظم يعتقده الأديب ، ويتوخاه منهجا مستقيما لعرض قضاياه الأدبية عبر حياته المختلفة ، لا تنجيه عن موقفه عوامل السعادة أو الشقاوة ، والرضى أو السخط ، والنصر أو الهزيمة ، ما دامت مهمته عقيدة راسخة في قلبه وعقله ووعيه وإدراكه ، وما دام يشده فكره ، فلا بأس أن يكون التعبير عنه مرآة شفافة تعكس ما له من صحّة العقيدة ، وصلابة الرأي ، وقوّة الموقف ، وشهد تراثنا العربي النيجيري منذ القديم ما للالتزام من سموّ وصفاء لبناء النفوس وتربيتها على القيم والمثل خلال العهود المختلفة ، خصوصا حين ساد فيها الإسلام ليس في القلوب فقط ، بل كان قوّة وعزّة ينطوي تحتها الناس أسوياء بلا طبقية ولا عنجهية ، وأمثل ما يقال هنا موقف محمّد بلّو بن عثمان بن فودي طيلة حياته ، ملتزما حدود الحقّ منهجا وحياة وسلوكا ، فإذا تغنى بأحداث نهضتهم السنية علما ودعوة وهجرة وجهادا ونصرا منذ التف هو وزملاؤه حول قادتهم التفاف النحلة حول يوانع الأزهار متلقين ومبلّغين وجنودا مناضلين منتصرين في معاركهم ، مؤكّدا أن مواقفهم تحيي السنة النبوية في صدر الإسلام حين كان المسلمون الأوائل يصوّرون بطولاتهم الإسلامية في إطارها المنصف العادل ، ونراه يقول يوم العزّة والغلبة[2] :

أصحبي بلّغوا عني الجوابا ... إلى العذال قولا مستطابا

بأني لا أزال إلى المعالي ... أرقّي لست من أهوى ربابا

وإني ماجد سمح حيي ... وضرغام إذا سمت الضرابا

فأبلغ زدي مع هود يهودي ... توقع وارتقب مني سبابا

---

(1) نجيب الكيلاني ، الإسلامية والمذاهب الأدبية ، ص: ٢٠.

(2) الوزير جنيد ، إفادة الطالبين ، ديوان محمد بلو ، ص: ١٤.

ومغزائـــي مبـــات إلى مَكَـــدا فـــأوقع في بلادكـــم الخرابـــا
بجنـــد يمـــلأ الأركـــان طـــرّا ويكسو السـهل والحـزن النشـابا
يلـــفّ الخيـــل يومئـــذ نســـاء أوانـــس قـــد أصـــبن لنـــا نـــهابا
فـــلا يحجـــبن يومئـــذ بخـــدر ولا يـــوقين مـــن شمـــس عتابـــا
ولا يبقـــى بأرضـــكم عـــدوّا ولا يبقـــى لكـــم إلاّ الترابـــا
وهـــم أوفى التـــوارق يـــوم عهـــد وأعلاهـــم إذا انتســـبوا شـــعابا
ولا تثقـــوا بعهـــد غـــرس فـــإني رأيتـــهم ســـباعا أو ذئابـــا
ولو وزنـــت شـــيوخ غـــرس جميعـــا علـــى الميـــزان مـــا وزنـــوا ذبابـــا

وفي أعقاب هذه الانتصارات الرائعة تسللت في صفوف الجهاديين عناصر متهالكة على الدنيا جامعين حطامها غير عابئين بما يسعى إليه أعلامهم الأوّلون في إقامة العدل وإنصاف المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، بل إنّ همومهم أن يحكموا ويسودوا بما لا يرضي الله ورسوله ، وعندئذ تجدّد في نفسه أن يقلب الوجه الآخر من نشاطه بصريح الدعوة موجّها تلك العصابة إلى تعديل غرائزها الجشعة ، ولما تنفع نصيحته قويت في نفسه عقيدة الزهد والتقشّف عن أعراض الدنيا ، وهاجر مدينة صكتو التي اختطّها محمد بلّو لوالده عاصمة الخلافة الإسلامية ، ولما نودي بالخليفة ظلّ منطلقا إلى « ورنو » واتخذها رباطه ، ثمّ أوصى الناس بدفنه فيها إذا جاء أجله واقفا عند معاني هذا التبتّل في إبداعه خوفا من الله وخشية منه ، على نحو لا يلهو عن رحمته على سلوك الالتزام الإسلامي ، فيقول :

« أبعـــد الشـــباب زمـــان بـــهي وبعـــد الجهـــام حبـــا وحـــبي
كـــأن الشـــباب رداء علـــي فألقيتـــه وأتـــاني عـــتي
وعـــاد خيـــالا وطيفـــا وصـــبحا تـــولى وجـــاء المشـــيب العشـــي

ومن نال علما ولم يكتسب … به عملا صالحا فغوي
ومن نال عزّا ولم يفتخر … ولم يتكبّر فذاك السري
ولم أر كالصمت منه جميلاً … ومكسب ذا الصمت عندي زكي
وذي شغب وجدال وضبط … يرى أن صمتا عن القول عيّ
ولم يدر أنّ الكلام ملامٌ … وأنّ الصمات مقامٌ عليّ
ومن ملّك النّفس عمّا تريد … وأتبعها الحقّ فهو القوي
وأنّ القناعة رُشدٌ كثير … وصاحبها الدّهر خلّ غني
ومن راقب الله في أمره … وجاهد فيه فذاك التقيّ»(1)

وقد اتّبع الإلوري هذا المنهج يشيد بمبدإ الالتزام ، ويعدّ معنى جليلاً جديراً بشموله سائر مناحي الحياة ، وأنّ خير طريق في اكتسابه دقة استعمال النزعة الروحية وتنويه مكانتها ، وإكبار مثاليتها وإعلاء شأنها ، وردّ جماحها عن حرصها على قوة المادة وملذاتها ، بل الحكمة هنا خلق الجوّ الأمين من الملاءمة بينهما لبناء المجتمع الفاضل ، والله لم يخلق الإنسان ملكا ولا جنّا على الأرض ، فلم ينشئه بهيمة تسيح مناكب الكلإ والوادي شاقيا في سبيل البدن ، وإنما فطره جلّت حكمته لتعمير الأرض ، واستغلال طاقاتها ملتزما مسئولية الخلافة والقيادة ، وما تؤديه من جلال المعنى عدالة ورحمة وصدقاً ، حتى ينطوي الخلق في لوائها إخوة متحابين متعاونين ، وعندما يظلّ الفرد المسلم على هذه الخلال الحميدة ، فإنّ المجتمع لا تهلكه نزوات الغوائل ، ولا تضلّه نزغات الطواغيت ، بل تسوده القيم والمثل الإسلامية .

---

(1) محمد بلو ، ديوانه ، ص : ٧٣ .

obeikandl.com

الالتزام العقلي لدى الإلوري

يقيم الإلوري في هذه القيثارة طابعه الذهني على ثروته المنطقية وما خاضه في عدّة معارك لتصعيد طاقاته الفلسفية ، وما أقلّته روافده المتميزة في الجدل والمناظرة والمحاورة ، انتهت مساعيه فيها جميعا إلى إنصاف أئمة الفكري الإسلامي جميعا ممّن تجنّوا عليهم في المروق على الدين ، أو الاعتداء على العلم ، وغيره كثير مما ناضله ، فأصبحت كل طائفة تملك من العزّة والعظمة ، إذ كانوا يتبادلون المنافع في الرواية والدراية ، ويستعملون رموز المصطلحات للوصول إلى غايتهم في القياس والاجتهاد والاستنباط ، وبذلك يجعل المنطق مطية الالتزام .

ويتصوّر الإلوري النظر إلى كلّ موجود ، يمكن أن يشاهده المؤمن ويحسّه بحثا عن جلال الله وجماله ، وتدبّرا في آياته الباهرة في الطبائع كلّها ، وهو مندرب في الإسلام بعدّة آيات من القرآن الكريم ، ونصوص متضافرة من السنة المطهّرة تدعو إلى التفكّر في خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وأهمها الإنسان وما يتعلق به[1] لقوله تعالى : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾

(الذاريات: ٢١).

وذلك لأنّ العبد قطعا ينال نعمة التدبّر والاعتبار ، بل يعدّ شعبة قدسية من شعب العبادة ، لأنّ حقيقة التفكّر في الخلق من منابع ذكر الله تعالى ، ومن خير سبل وأمثلها لاكتساب «الالتزام» ، إذ يحلّ محلّ المهجة الدفّاقة في إنعاشه ، والمحرّك القوي لسيره ، ولا تصفو السريرة صفاء كاملا إلاّ إذا كان الضمير

---

(1) الإلوري ، فلسفة التوحيد ، مطبعة الثقافة الإسلامية ، أغيغي ـ نيجيريا ، عام ١٩٦٩م ، ص٦.

الذي يوجهّها ويحكمها مصحوبا بمعرفة الله مستمدّا منه القوى ، ومستلهما منه الهدى ، وكلّما دامت النفس الإنسانية على هذه الرقابة المعنوية من الله ـ جلّ شأنه ـ اطمأنّت من قلقها ، واعتدلت في سلوكها ، واستقامت في نهجها ، وعلى هذا نلمس بائية الإلوري تدور محورها في نفسه للتفكّر في صنائع الله وبدائعه ، وتدبّر سمو معانيه وجلال مكارمه وآلائه :

«لقد جال فكري إلى أصل أمري ... فما آب إلاّ بأمر عجيب
فلا بنبغي لي سوى حمد ربي ... على نعَمٍ فوق حصر الأريب
بأنّي كنبت على صخرات ... فما عشت إلا بحفظ الرقيب
فأنبتني الله من غير ماء ... بأرض عراء وجوّ عصيب
وكنت الفقير وكنت الحقير ... وكنت الأسير بوادي الكريب
وكنت الجهول وكنت الكسول ... وكنت الذليل بقلب كئيب
فما لي مربّ عليه اتكالي ... ولكن ربّي ولي الدروب
فضائل ربي أتتني تباعاً ... بغير عناء وهذا غريب
وما نلت علما وفضلا بكيد ... وما ذاك إلا بفضل الحسيب
وما كنتُ إلاّ كما شاء ربي ... من الطفل حتى زمان المشيب»[1]

القيمة الفكرية : تستقيم تلك الرؤية عندما يعبّر الشاعر عن نفسه مستغلا طاقات التوجّه الذهني في ذاته ، متجليا ما أودعه الله فيه من حقائق الوجود والحياة ، لأنّها أقرب إليه من غيره ، وأدعى إلى الاشتغال بها تقديرا لنعمه ، وعلى هذا الخطّ السوي القويم أشار القرآن الكريم في تلك الآية الكريمة : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ (الذاريات:٢١) إلى الإنسان للاعتبار ، يقول الزمخشري :

---

(1) الإلوري ، ديوانه : لقطات ، ص : ٦ .

وفي حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطرة ، وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول ، وما خصت به من أصناف المعاني ، وبالألسن وإن نطق، ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة، البينات القاطعة على حكمة المدبّر ، ودع الأسماع والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له ، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتنثي ، وإذا استرخى أناخ الذل« فتبارك الله أحسن الخالقين »(1) .

وعندئذ يفطن العبد العاقل بجلال مفيض الآلاء مسديها ، وليّ النعم مثريها ، فينظر العبد ويدقّق النظر في أوجه وأشكال مثنيا عليه ـ جلّت نعمه ـ مقدّرا مننه ، ومعترفا بها للإنابة إليه ، وهذه المعاني لا تجلّ شكرا إلا إذا عبّر عن عجزه وفي موافاة النعم ما تحققه تلك الرؤية التي تدور في ذاكرة الإلوري حين يمضي ويبيّن أنّ نبوغه كان مدهشا ومغربا ، إذ كانت البيئة التي ينتمي إليها قاحلة لا تنبت الزرع ، ولا تنمي الكلأ ، ومن على هذه الشاكلة ، فلا ينهض إلاّ بعصمة الله ورعايته ، وهو قول جميل رائع يبرئ المرء من الزهو ، ويؤكّد انتماءه إلى ما أناره الله لعباده من قيم ، وأمرهم بنشرها بين كافتهم لتسود الفضيلة والخير ، والحبّ والأمن ، والرخاء والسعادة ، ولا يمنعنا الالتزام الإسلامي اعتداد القوّة على نحو ما يملكه أعداؤنا للدفاع عن أنفسنا ، وإلاّ فإنّهم لا يزالون يصدّون أولي الحقوق عن سبيلهم ، ويغرون سفهاءهم للاعتداء على الأبرياء ، ونرى قوله :

«عذرت أناسا من أهل الدهاء	وأهل الشقاء ورين القلوب
يريدون إطفاء نور الإله	فما ساغ إلا بنضخ الهبوب
فراشٌ يحومون حول السراج	فضاعوا جميعا بشرّ اللغوب

(1) الزمخشري ، الكشاف ، ٤/١٧.

فكم من حسود وكم من حقود وكم من عنود سعى للخطوب
فما آب إلا بخسران دنيا وخسران دين وحني الذنوب»[1]

ألا ترى أنّ الشاعر قد شدّد وطأته على أعدائه ، وسفّه أحلامهم ، وتعرض لهم وأفضحهم ، وكشف أسرارهم ، ومزّق حصونهم ، ونعاهم على هزائمهم ، أتقول إنّه قد خرج من سلوكه الإسلامي؟ أتظنّه غير ملتزم حدود الصدق في التعبير والتصوير والحكم؟ وحجّتنا أنّه لم يقع ، إذ يدعو الحال إلى إثارة حفيظة الحليم ليأنف عن الضيم والظلم دفاعا عن دينه ونفسه وماله وأهله وعرضه ، ومن قوتل في تلك الضرورات أو منها فقد حقّ عليه الجهاد ، قال جلّ شأنه : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة:١٩٤) ، ولما انتصر المسلمون في معركة بدر أباح الله لشعرائهم كحسان ابن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، أن ينالوا الأعداء بصلائل أشعارهم وبراكين بيانهم ، وحين قدم جعفر ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ـ ﷺ ـ يوم فتح خيبر ، فقبل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه ، وورد قوله فجرى مجرى الشعر مسرّة وغبطة ، وقال : ما أدري بأيّهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر[2] ، يقول النابغة الجعدي :

أتينا رسول الله إذ جاء بالهدى وجاء كتاب كالمجرّة نيراً
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فسأله الرسول ﷺ : إلى أين يا أبا ليلى؟ فقال : إلى الجنّة ، فقال الرّسول ﷺ : قلْ إن شاء الله»[3] . وهو فخر لا يخلو من التحدّث بنعمة الله ، والاعتداد بفضله شكرا وتعظيما له ، ولم ينكره الرّسول ﷺ ، ولم ينتهر قائله ؛ إذ يعبّر عن فروسية إسلامية مجيدة ظلّت على سمتها الموضوعية في القول ،

---

(1) الإلوري ، ديوانه ، ص : ٦ .
(2) ابن هشام ، السيرة النبوية ٢/٤١٤ .
(3) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص : ٦٩٥.

وعلى إطارها المنصف في الوصف ، وإذا ثبتت هذه الحقيقة ، فإنّ تعرض الشاعر لهؤلاء الأعداء الذين عادوه كثيرا ، وألحقوا به أضرارا بالغة تكاد تهلكه هو وأتباعه وآثاره ، كانَ حقّا عليه أن يستعين بالله عليهم لعلّهم يرتدعون ، فيغدو مثلا وعبرة للمعتبرين ، ونعلم أنّ قصده ليس فخرا ولا زهوا ، وإنما هو تقدير لنعمة الله ، واعتداد بها ، ويتمثّله قوله :

لك الحمد ربي على ما مننت وأنت السميع وأنت المجيب

فلا تسألني ولا تخذلني على عظم ذنبي وكيد الخطوب

وعلى هذا الأساس ، يكون الالتزام العقلي لدى الأدباء الإسلاميّين مظهرا من مظاهر أصولهم الجليلة ، وإذا تدبّر المرء في واقع ذاته ، فعلم أنّ أصله من طين ، ثم تدرّج نطفة ذليلة حقيرة ، فتطوّر علقا ، ثم إنسانا يركب طبقا عن طبق حتى أصبح تامّ الخلقة والخلقة عظم في نفسه جلال الخالق المدبر ، وضعفت كبرياء المخلوق ، وخفض جناحه ، وذلّت عزته عن البغي والطغيان ، وهذا الشعور القوي هو الذي دفع الشاعر إلى ضرب قيثاره متحدّثا بنعمة الله عليه ، يرى تلك المنن في وجوه شتى ، وأخذ عند التعبير اختيار ما أحاطت بنبوغه من صنوف البلايا ، وهو يرى نفسه أفقر الخلائق ، وأحقرهم ، وأضيقهم ، وأجهلهم ، وأشدّهم كسلا ، وأذلّهم وأهمهم بالاً ، فتوافدت عليه نعم الله فضائل متواليات خارجة عن كيد كائد ، ومكر ماكر .

ويمكن أن نشير إلى طرف من قيم القصيدة الفكرية ، وأبرز ما نلاحظ هنا كثرة الحقائق ، وتطعيم النصّ بمواد غزيرة من المعاني حتى تعظم قوة الإقناع ، ويجلّ الموقف ، وذلك عندما نفذ إلى منازلة أعدائه لخبث مواقفهم ونكث قواهم ، تنديدا بأنّهم مهما مارسوا من ضروب المعاداة فلا يظفرون ، وأنّ ما أجهدوا فيه أنفسهم سيلقونه شقاوة ووبالا عليهم لما ران على قلوبهم من سوء لإخفاء معالم الله ، وطمس بصائره ، وأنّه سيكون مصيرهم ما آل إليه كلّ من شاق عباده صادين سبلهم ، فلا جرم أن يخسروا آخرتهم وقد لزمتهم

الخسارة في دنياهم ، لأنّهم رأوا الحقّ فأبوا ، ولا يفي هذا العرض بالغرض المنشود إلاّ استنطاق طائفة من الأحداث والمواقف التي صحبت هذه القصيدة وأفاضتها تجربة أدبية وضعت غورا عميقا في نفس المخاطب على نحو ما عاشها الشاعر ، وهذا الاستيحاء التاريخي ذو شأن عظيم يلقي مطابقته في واقع النصّ ، لا لتحويله إلى حقائق وبراهين ، ولكن لإثراء المعنى وتغذية الفكرة .

والظاهر ، أنّ العقد الأوّل من تأسيس المركز عام ١٩٥٢-١٩٦٢م ، « مناسبة القصيدة » يعدّ فترة ذهبيّة لا للإلوري وتلامذته وأتباعه وأبنائه فقط ، بل يشمل مجده المنطقة وما حولها من البلاد لما تمّ من إنجازات تبشّر ما ارتآه العلماء من إرهاصات مشرقة في الخطى :

- تخرّج الفوج السادس من طلابه ، متكوّنين مع أسلافهم كواكب ثاقبة ، خائضين معارك الحياة الإسلامية في شتى مواقعها ، ولم يطل بهم الأمر حتى بدوا أعاجيب زمانهم في النجابة والنباهة ، تنوط بهم القيادات الظافرة ، ويجوبون مناطق معمورة ومهجورة حاملين شعلا وقّادة من نور القرآن الكريم ، وحكمة السنة المطّهرة ، وما يثري منهما من تيارات علمية وأدبية ، على مدى ربوع البلاد شرقا وغربا .
- كانت كتُبه تشقّ طريقها لتشغل ما شغرت عنه مكتباتنا علما وأدبا وفنّا ، تارة يقيم الوظيفتين الهامتين شرحا وافيا وتفصيلا عميقا ، وتحليلا رائعا للآراء والاتجاهات السابقة ، ومرة أخرى يتدارك على من سلفوا ويسدّ فراغهم بعقل نيّر .
- غدا منبره موئلا إعلاميا يقتضب عذارى الخطب لتثقيف الأمة سياسة ، واجتماعا ، وفكرا ، على مدارج الأحداث التي يمرّون بها ، وما أروعه! إذ شكّل المناسبات الإسلامية والعلمية والاجتماعية ملاحق منبرية ليتدرب عليها فتيان البيان على القول الفصل ، والبيان الصاقع .

- انطلقت إلى المركز وفود البيعة علماء وفقهاء ودعاة ونساكا وأمراء وسلاطين ، لاتخاذ هذا الربع رباطا مقدّسا يُعنى بإعداد الجنود المسلمة تحقيقا للعزائم الكبرى التي تعاقب على ملاحمتها الإمامان عثمان بن فودي وعالم بن جنتا ، إذ توارثاها من قبل المغيلي ، ومحمود البغدادي ، والبكري ، والثقة ، ولئن باغتتهما المنية فقد تقفى أثرها من ذراريهما صقران جريئان على البسط والقبض أحمد سردونا بصكتو وذو القرنين بإلورن ، فتحقّق ذلك على يدي الأخير ، وأدى يمين البيعة ، فرمزت دار العلوم قلعة محصنة لتمثّل الجبهة الشمالية ، كما أتى مركز الشباب ليقيم مقام المحمية الجنوبية ، ومنذئذ تقلّد الإلوري مهامّ توجيه سياسة البلاد إلى أهدى سبل وأقوم نبل .
- انطلق محرابه منطقة حرّة لكافة المسجديّين ممارسين أورادهم وأذكارهم معتكفين ونسّاكا ، لا يصرفهم إلى حطام الدنيا وزخارفها جاه ولا مال ولا زعامة ولا رياسة ، بل كانوا قانتين وقانتات لله منقطعين ومنقطعات إلى الله للإنابة ، وقد أتت ثمرتها الطيبة فتواجد أولئك على اختلاف نوازعهم ، وطبقاتهم وأجناسهم مترابطين جميعا أرواحا مجندين ، لا تفرّقهم طائفيّة ، ولا تخلّ بصفوفهم طبقيّة ، بل كانوا على وحدة متماسكة إخوة متحابّين في الله ورسوله ، وإليهما راغبين .
- اتّخذت على الجبهة الخارجية مركزه سفارات عربية موئلا محصّنا لحماية المسلمين ، وخاصة أقلياتهم ، وكما جددت عهودها لتنظيم الوفود العلمية إلى بلادها لمواصلة أجيال الإسلام الصاعدة للدراسة ، والتوعية ، واليقظة ، عائدين بما يحتاج إليه قومهم من أنوار العلوم والمعارف ، وانبثق من ذلك نشأة الملحق الديني الذي ينظّم حياة الدعاة والمدرّسين داخل الوطن .

ولا ريب أنّ هذه الهمم العالية قد بوّأت العلامة رجل تجربة رائدة في تطعيم المجد التليد ، وإنباه الوعي الراقد ، وتثقيف الخاملين ، وعلى الرغم من أنّ فئة غير قليلة قد اقتبسوا من علمه ، إلاّ أنّ ثلة كبيرة قد شنّوا عليه الحقد والحسد

حربا شعواء لا هوادة فيها ، إذ لم يخطر ببال أحد أنّ فردا واحدا قدير على إنجاز هذه التطوّرات العظيمة في ظروف قاسيّة ، وفي بيئة مليئة بالصراع الديني المرير إلاّ ما كان على يدي هيئات حكومية[1] ، أو جمعيات إسلامية[2] ، وأغلبها تعنى بتثقيف المتعلمين على الإنكليزية ، وتزويدهم بأحداث الإسلام لا لتخريجهم علماء وأئمة ودعاة ؛ إذ لا يلوون ساعة من الليل أو دقيقة من النهار إلى العربية ، فأنى لهم التجديد الإسلامي الذي يزعمونه ، وإمامة المسلمين التي يحلمونها ، وزعامة العلماء التي يهفون إليها .

وبهذا أتت القصيدة صورة واضحة عن عقيدة الإلوري في حماية القيادة الإسلامية ورعاية مصالحها ، وبذل الجهد الأقصى لاسترداد ما ضاع عنها ، وتربية الأجيال على استلام مقاليد أمورهم آجلا أو عاجلا .

ومهما يكن الأمر ، فإنّ الشاعر قد ابتلى بمعاداة المعادين على شتى الوجوه والأشكال ، وكانت جملة ما حميت عليه صدورهم أنّه بذل العلم بسخاء ، وأنّ تلامذته أبدوا نبوغا عظيما خصوصا في الطلاقة والإبداع ، لأنّ العادة الشائعة أن يظلّ الطلاب قبل نضجهم سنين طوالا دون أن يقتدروا على تحرير مقالة أو إبداع قصيدة ، أو اقتضاب خطبة ، وإن كانت متون الفنون محفوظة في صدورهم ، مشحونة في رءوسهم .

ومع أنّ همنا عرض أدبي فني في حقول المنهج الإسلامي إلاّ أنّ واقع النصّ تغرينا قيمته الفكرية لبيان خصائصه منها ، وتغمرك جودة القوة عندما تصنف القصيدة قائلها في صفوف المتكلّمين النسّاك المعتقدين أنّ الله جلّ شأنه هو مصدر الخير وحده ، وكلّ نصّ يوهم خلاف ذلك يجب تأويله تأدّبا مع سموّ

---

(1) ومن أمثلتها ؛ مدرسة العلوم العربية بكنو ، وفروعها العديدة في مناطق شمال البلاد.

(2) أقدمها الجمعية الأحمدية التي استقلت منها جمعيات ، وأنصار الدين ، ونوائر الدين ، والزمرة الإسلامية ، وأنصار الإسلام ، والمؤتمر الإسلامي ، وجماعة إزالة البدعة وإقامة السنة ، وغيرها من الهيئات الإسلامية .

قدره ومناسبة لقدسيته وجلاله ، وعلى هذه السنة نلقاه قد أسند أفعال الخلق ، والرزق ، والرعاية ، والكرم ، والعزة إلى المولى عظمت نعمته ، وأضاف إلى أعدائه ومعانديه الشر وما في نتائجه من ذل ، وحقارة ، وبؤس ، ومكر ، وخديعة ، وحجته أنهم اختاروا الحسد وسعوا في تحقيقه ، فحقّ عليهم نعيه ، وكما يرفعه كذلك السموّ الفكري إلى معارج السالكين حين غلبت عليه نزعة «الفناء والبقاء» إلى درجة تصوير نفسه أنه قد انقطعت عنه جميع اعتبارات وعوامل تم عليها تكوينه ، وما ترقى على مدارج العلم وسلالم النبوغ والنباهة من تربية وتعلّم ورشد ، إلاّ من الله جلّ شأنه ، وهو وحده تولاه ، وعندما يبالغ في وصف سوء حالته أمام عظمة رحمة الله يوحي بأنّه هو الفريد الذي انتهت إليه الأوضاع السيئة على حين لم يكن أسوأ في الظروف التي عانى منها ، وليس عصاميا صرفا ، فقد صعد مراقي عدّة إبان تعلّمه بين بيئات مختلفة ، حتى وصل إلى مرحلة النجابة ، ولم ينكر ذلك ولم يتجاهله على نحو ما سبق ذكره .

على أنّ ذوق «الفناء والبقاء» موهبة من الله نعمة على من يشاء من عباده ، فمن قويت فيه حقيقة التوكّل على الله والإيمان بفاعليته الحقّة ، والثقة بعونه على صورة غير محدودة يدفعه الإحساس العميق إلى عقيدة بقاء الخالق وفناء الخلق في جميع مناحي الحياة ، وقد جرت لديه هذه الظواهر النفسية العميقة في كثير من مهماته العديدة ، فاتّخذ جمال الاعتماد على ربّه سبيلا عند العزم على الرشد ، فغمرته عندئذ مواجد وأذواق لا تحيط بها أوصاف ، ليست في مواطن الإبداع فقط ، بل شملت مواقف الوعظ والإرشاد ، والخطابة ، والدعوة ، والتدريس ، ولا بأس بهذا الذوق إذا كان نابعا من العقيدة الإسلامية السمحة ، إذ يعبّر عن الانتماء المطلق إلى الله جلّ شأنه امتدادا من قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن:٢٦،٢٧)

« فهو وحده الأزلي الأبدي ، وما سواه فهو مخلوق وفان ، ولا يبقى من أعمال إلا ما عمل له تعالى »[1] .

وما دامت الدنيا تناسخ في بعض أحوالها الآخرة قبل قيام الساعة ، فإنّ ذوق الفناء والبقاء حالة قد تعتري فئة من خلق الله تعالى في كلّ طبقات بدون حصرها في طائفة معيّنة .

فمن انتهى به الحبّ الإلهي إلى ذروة التجربة الحقّة يرى فيها أنّ المولى جلّ شأنه قد تجلّى ما يستوي من أمر الحقّ سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ، ويسلب عن العبد اختياره وإرادته فلا يرى لنفسه ولا لغير، فعلا إلا بالحقّ سبحانه، ثم يأخذ بالمعاملة مع الله سبحانه وتعالى لحسبه، أو من جاهد نفسه، فلا يشاهد خلاله غير جمال الحبيب ، وهو في بحر الفناء الزاخر ، لا يحسّ بشيء من الموجودات ، لأنّ الإحساس قد فني بنسبة هذه الموجودات واتّجه بكلية المطالعة جمال المحبوب .[2] ومن بلغ به الإخلاص في الخالق دون الخلق يعيش في عالم الجمال المطلق ، والخير المطلق ، والحقّ المطلق ، وفي عالمه هذا ترفع له الأستار عن الأسرار ، وتتجلى له الحقائق حقّ اليقين وعين اليقين ، والمحبوبون في عالمهم هذا ليسوا على درجة سواء ، فمنهم من يشاهد الحبيب وهو في حالة رهبة أو خشية ، ومنهم من يشاهده وهو في حالة أنس به أو مناجاة له .[3]

فلا بأس أن يوشّح العلامة آدم إبداعه بهذا الذوق ، لأنه أحد تلامذة :

العلماء الذين استفرغوا ما للمنهج الاستدلالي عند التلقي من استبصار واعتبار ، وشقّوا منهج الإلهام والقلب توسّلا إلى المعرفة والحقيقة ، فيحصلون عن طريق ذلك ما لا يدرون كيف وأين حصلوا ، وأهل التذوّق والإلهام

---

(1) جومي ، رد الأذهان إلى معاني القرآن ، ٢/٧١٠

(3,2) أبو عبد الله ، محمد بن أسعد اليافعي ، نشر المحاسن الغالية في فضائل المشايخ الصوفية ، ص : ٢٠٨.

يوثرون العلوم الإلهامية دون التعليمية يرونها هي المعرفة الحقيقيّة والمشاهدة اليقينيّة التي يستحيل فيها إمكان الخطأ ، ولم يحرصوا كثيرا على أداء العلم وتحصيل ما وضعه المصنّفون ، والبحث عن الأقاويل والأدلة[1] .

والحقّ أنّ هذه المواجد والأذواق التي تصوّر الكون بأكمله فانيا والخالق وحده باقيا لا تناسب إلاّ من تفقه أعماقها ، وتحقّق أبعادها ، وتبيّن أسرارها ، وكان من ذوي الأحوال والمقامات ، والخطاب فيها موجّه إلى الصفوة أولي الخصوصية من الناس ، وإلاّ فإنّ العوام يقعون موقع التجهيل والتضليل لكلّ ما تبدر من عبارات تكنفها اصطلاحات ودلالات لا يعرفها إلاّ أهلها ، ونتيجة ذلك يحكمون أحكاما مخالفة للواقع ، اللهم إلاّ أنه لا قدح في هذا الذّوق ما دام لم يدع إلى ابتداع القول في الوحدة والحلول والاتحاد ، بل يوسع مجالات علمية ، ولا تزال المؤسّسات التعليمية الكبرى اليوم تقرّ بعجزها عن توفية كلّ ما يحتاج إليها طلابها في جميع معارج حياتهم خصوصا عقب تخرّجهم ، وإذا دعم عقل الطالب المؤمن بقلب ثاقب وروح شفافة يدرك من وعي الذوق بنفسه ما لا يحصل عليه في قاعات العلم ومنابر الدراسة وصوالين البحث ، فذلك الخير الذي تبغيه مناهل التلقي .

وبهذا تتحقق الغاية من الالتزام العقلي في إيقاظ الذهن ، وفتح أبواب الطبيعة للتعرّف على بدائع شأن الله وصفات كماله ، ونعوت جلاله ، ومظاهر عظمته ، وشمول علمه ، وتفرّده بالقدرة في الخلق والإبداع .

وأما الخصائص الفنية ، فإنّ ألفاظ القصيدة مألوفة سهلة ممتنعة ، ورغم دورانها في متداول مستمرّ نشط ، وأن اختيارها يعبّر عن قدرتها على أداء المعاني التي تحملها من ظلال ، وما تشيع من إيحاءات ، وقوة التئامها مع أخواتها تحدث الأريحية والرونق ، وأبرز وجوهها كثرة الألفاظ المعنوية

---

(1) فنسك ، دائرة المعارف الإسلامية ، ص: ٣٤٢.

ومضاعفتها على نظائرها الحسيّة ، إذ الموضوع ذاته يعالج قضية الالتزام العقلي ، ويسير القوى الفكرية إلى الهدى والاستقامة .

فقد استهلّ فنه بكلمة « الفكر » إشارة دقيقة إلى أن العامل المناسب في عرض قضية الاحتجاج والبرهان في مخاصمة الظالم قوة الدلائل مما يحسّه الإنسان دفعة واحدة ، وليس أدلّ على ذلك من الظفر وبيان علله ، ومواطنه ، وذوقه ، وفي مقابلته خذل الخصم وهزيمته ونكسه ، وضيق المكان عليه ، وخرس لسانه ، وإن تكرار كلمة « كم » مقولة أقرب إلى المناطقة منه إلى أصحاب الذوق والأدب ؛ لأن قدرة المادة كثرته وتعداده وثقله عند الوزن . ونسّق تنسيقا دقيقا أفعالا ليست في ظاهرها ترادفا إلا التعانق المعنوي كالفقر ، والحقارة ، والأسر ، والجهل ، والسهولة والتذليل ، وجمالها ليس في سردها ولكن النسق الذهني الذي أثاره الشاعر ، إذ يترتب بعضها على بعض ، والفقر يجلب الحقارة ، وهي دائما تنتج الأسر ، وهو فقدان الحرية والعزة ، وكذلك الجهل ينزل الإنسان في منزلة الاستخفاف ، والقلة ، والازدراء .

ومن جودتها تخير كلمة « آب » غريبة محمودة تجري على مرأى النابهين من ذوي الملكة البيانية ، والمتمرسين وظائفها للإبانة أن الموضوع الذي يعالجه تلبّي أذواق المختلفين من أئمة العلماء وقادتهم ، لأنّ الذوق المرهَف يقتضي أنّه يشرف معناها على سواها إذ لا تصدر إلاّ من له إرادة ونباهة ، والمآب مصدر ميمي ، واسم الزمان والمكان ، والأواب كالتوّاب ، وهو الراجع الحقّ إلى الله تعالى بترك المعصية ، وفعل الطاعة ، والتبتّل إليه البتة توبة نصوحا .

ويدفعه سموّ الاعتقاد إلى التعبير عن الإحساس بفكرة بقاء الخالق المطلق ، وفناء الخلق المطلق سلوكا بالكلام على سنة اللسانيّين النابهين في إيثار بناء على آخر لما يوحي به المقام من قيمة وسر ، يتمثل ذلك في صيغ « الفعيل » لمبالغة الفاعل ، والصفة المشبه به ، و« الفعول » جمع الكثرة عند وصف حالة نفسه ، وهو يبتغي آلاء الله دائم البركة وواسعها :

وكنت الفقير وكنت الحقير وكنت الأسير بوادي الكروب
وكنت الجهول وكنت السهول وكنت الذليل بقلب كئيب

ويصف مكائد حساده الزاهقة أمام انتصاره بالله عليهم :

وكم من حسود وكم من حقود وكم من عنود سعى للغوب

ويختار للمولى جلّ شأنه أسماء حسنى وصفات عليا ، لبهاء شأنه وعلوّ عظمته وعنايته به ونصره ، ويقول :

لأني كنبت على صخرات فما عشت إلاّ بفضل الرقيب
وما نلتُ علما وفضلا بكيد وما ذاك إلا بفضل الحسيب
لك الحمد ربّي على ما مننت وأنت السميع وأنت المجيب

لأنّ «الفعيل» إن دلّ على الصفة المشبهة أفاد اللزوم بالسجايا والطبائع لحصر المعنى في بؤرة المقصود وإحاطته وشموله ، وإن وقع مبالغة دلّ على الكثرة والعدة ، وكلا المعنيين يؤني غرض القوّة والمتانة ، واستخدم «فعول» وأوقعها قوافي أبيات من القصيدة ، كـ«الكروب» و «القلوب» و«الخطوب» و«الذنوب» ؛ لأنّ الفعول «الجمع» ، يؤدي معنى الكثرة ، وكلتا الغايتين تحقّق وفاء معنى البقاء للذات العلية ، والفناء للخلق ، إذ يتصوّر أنّ سلالم التربية التي ترقى منها أضحت مضمحلة إلاّ عناية الله ، وأنّ كلّ ما حاكه الأعداء من تدابير ومكائد تلاشت قواها أمام عظمة الله التي نصرته وحفظته ، غير أن أسلوبه يربأ بأسلوبه عن الابتذال والامتهان عندما يؤثر «الباء» على «الواو» ، أو هي عليها ، ولكنه مال إلى التوازن ، والتوسط في الأمور خير كثير .

ويهديه الذوق المرهَف إلى إيقاع كلمة «الأمر» معرفة تارة ونكرة مرة أخرى في قوله :

لقد جال فكري إلى أصل أمري فما آب إلا بأمر عجيب

لإقرار غاية الخصوصية ، وبيان دقّة الفروق بين المتشابهات ، لأن القرائن تقوي المغايرة بينهما ، فالأولى «المعرفة» تؤدي معنى المبالغة ، فكأن أوضاع الركود لم تنته إلاّ إليه ، وأنّه هو المعروف والشهير بها ، وحيث تحلّ المعرفة فرعا من النكرة كان كنّما لاقته من عوارض زائلة في مقابلة نعم الله تعالى ، أما النكرة فتؤدي معنى الغرابة والإعجاب بما لم يكن في الحسبان ، فعبّر بها عن الرقي والنهوض والسموّ ، وكلّ ما خرق الأمر عادته أدهش وقوعه ، وفي تقديم المعرفة على «النكرة» هنا ترتيب لا طبعي في وقوعهما وحدوثهما ، وصحّ أن تقع النعم هنا نكرة إذ هي أصل ، يقول سيبويه : «واعلم أنّ النكرة أخفّ عليهم من المعرفة ، وهي أشدّ تمكينا ، لأنّ النكرة أوّلا ، ثم يدخل عليها ما تعرَّف به ، ومن ثمّ أكثر الكلام ينصرف في النكرة»[1] .

أما وجوه التراكيب ، فإنّ القصيدة تتجلى بعديد من حلل فاخرة ، تنطلق من مطلعها بالخبر الإنكاري تنزيلا بالمخاطب منزلة الجاحد ، وذلك بأنّ واقع أمر الشاعر يحدث الدهشة والغرابة ، وكلّما وقع الأمر على هذه الصورة لزم التوكيد والتقوية فلا يكون هناك سبيل تردّد وتشكّك ، ولعلّ هذا ما جعل الشاعر يعدل ببلاغة القصر الذي يندر وجوده بالكثرة في النصوص إلاّ في خصائص الكلام وأنماطه العليا ، فوقع هذا الأسلوب في عشرة أبيات[2] من بين سبعة عشر بيتا في القصيدة ، وتقدّمت أداة «ما وإلاّ» على غيرها ، لأنّ المخاطب لما قويت فيه أمارة الشكّ والإنكار دلّ على جهله بحقائق الأمور ؛ لأنّ ضآلة العلم لا تقوى على الاقتناع والإقرار ، ثمّ تليها أداة التعريف للترتيب الطبعي لا الرتبي ؛ إذ تقع في ثمانية مواضع[3] ، بينما لم تحصل لسابقتها إلاّ في ستة مواطن[4] لمبالغة الوصف ومحاولة وصول الكنه والغاية ، ولا يبقى

---

(1) سيبويه ، الكتاب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ٢٢/١.

(2) انظر الأبيات: ٥ ، ٦ ، ١٦.

(3) الأبيات: ١و٢و٣و٤و٥و٦.

(4) الإمام عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، تعليق محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ص: ١٣٢.

جانب إلاّ وقد أحاطه إحاطة شاملة ، ولذا فإنّ أداة التعريف لا تفيد تقوية الحكم وتقريره في ذهن السامع فقط ، بل تبالغ في الوصف ادّعاء بأنّ حالة الفقر ، والذل ، والأسر ، والجهل ، والكسل من جانبه لم تنته إلى أحد سواه ، وكذلك مبالغة الوصف بـ« السميع والمجيب» للمولى لم تحصل إلاّ من الله ـ جلّ وعلا ـ ومن هذا الضّرب يقول الإمام الجرجاني :

أنت الشجاع بمعنى أنّك كأنّك أنت جميع الشجعان على حدّ ، أنت الخلق كلّهم ، وهو أنّك في قولك أنت الخلق أنت النّاس كلّهم ، وقد جمع العالم منك في واحد ، تدعي له أنّ جميع المعاني الشريفة المتفوّقة في الناس من غير أن تبطل تلك المعاني وتنفيها عن الناس ، « بل تدعي له أنّه قد انفرد بحقيقة الشجاعة ، وأنّه أوتي منها مزية وخاصية لم يؤتها أحد حتى صار الذي كان للناس غير شجاعة وحتى كان كلّ إقدام وإحجام كلّ قوة عرفت»[1]

بينما وردت أداة «لكن» وتقديم ما حقّه التأخير» في موطنين فقط ، لأنّ القضايا التي تسوقانها في منتهى الندرة والغرابة والقلة .

ومن مناط هذه القوة والرصانة جودة التكرار في مواقع «كم» الخبرية في مسندها بإفراد الفعل ، في قوله :

وكم من حسودك وكم من حقود وكم من عنود سعى للخطوب

لتؤتي معنى البطولة والشهامة تأكيدا لكثرة عُدَدِهم وعَدَدِهم في كلّ نواح ، ولكنّهم مع كثافتهم لا يزالون في القلّة بجانب قدرة الله التي تؤيده ، ولذا أتى معدود «كم» لأنّه لا يبالي بهم ، إذ كان المولى لا يزال معه ناصره عليهم ، وهذه الالتفاتة إلى ما لـ« كم» من جلال ينبئ عن سداد مواقف القدماء في تقرير لطائف بلاغية في الإنشاء غير الطلبي الذي تمثّل «كم الخبرية» أحد أركانه لما لها من صور فنيّة تحرّك المعنى ، ويفطن الشاعر إلى قدرة التسلسل ودقّة الترتيب بين عناصر الكلام من فحوى بلاغة الوصل وبديع الربط ، مهتديا

---

(1) الإمام عبد القاهر الجرجاني ، المرجع السابق ، ص : ١٩٨.

إلى الوجوه النيّرة بالأداة تارة وبالمعنى مرّة أخرى ، فلا يرى سبيلا إلى الفصل والتقطع بين أرحام الكلام ، ومن ذلك ما أحدثه في القطعة الأولى من مطلع القصيدة حيث يقول :

لقد جال فكري إلى أصل أمري فما آب إلا بأمر عجيب
فلا ينبغي لي سوى حمد ربي على نعم فوق حصر الأريب
بأني كنبت على صخرات فما عشتُ إلاّ بحفظ الرقيب

وعندما أوقع في قوله « فما آب » الفاء فصيحة ، وفي « فما عشت » ، وفي « فلا ينبغي » عاطفة بمعنى إذا تقرّر حصول الفرج من الله بعد الكرب ، والعزّ بعد الذلّ ، والكرامة بعد الإهانة ، ثبت ثناؤه وحمده ، وشكره وجوبا ، ويستعمل الواو في الجمل المشتركة للحكم الإعرابي ، ومطلق الجمع بينها في ظرف واحد ، ونلمس فيما يلي :

وكنت الفقير وكنت الحقير وكنت الأسير بوادي الكريب
وكنت الجهول وكنت الكسول وكنت الذليل بقلب كئيب

دلالة على الصفات المتلازمة ؛ إذ توالت على الشاعر حالات سيئة دفعة واحدة دون أن يعي فروق أزمان وقوع كلّ منها على التعاقب ، وأنّ التعبير بالماضي أولى بالتفاؤل لعودة الخير وغيبة الشرّ الذي لا يرجى بقاؤه ، ولا رجوعه ، ومن الوجوه الجيّدة نزع حروف العطف من هذه القطعة :

عذرت أناسا من أهل الدهاء وأهل الشقاء وزين القلوب
فراش يحومون حول السراج فضاعوا جميعا بشرّ اللغوب

لما يثيره من روابط معنوية تستدعي دقّة التلاحم بين أجزائها ، وتستوجب قوة المؤاخاة بين بعضها وبعض ، فالبيت الأوّل من القطعة أوقعه الشاعر شبه كمال الاتصال لكون الجملة الثانية جوابا وردّا اقتضته الأولى ، فنزلت منزلة السؤال ، فيوحي فحوى الكلام بأنّه لما ادّعى أنّ أعداءه قد دبّروا مكائد أوجس

في نفس المخاطب اللّبس كيف يحدث ذلك؟ ، فافتقر إلى ما يزيل غموضه ، ويجلو عارضه ، ويقوي اعتقاده . فأنزل البيتين الأخيرين كمال الاتصال أوّلهما وقع بدلا من متبوعه ، فجاء ما مثله على صورة فظيعة ، وكان المراد هنا توبيخ المخاطب على ما اقترفه والاستغراب من شأنه ، بينما جاء البيت الأخير توكيدا لأن إمارة إنكار المخاطب بارزة على الرغم مما اكتنفه سابقه من حقائق وبراهين ، فحقّ أن يقع ما يليه تأكيداً لا لدفع توهّم التجور فقط ، بل ليؤدي أوفى التقرير ، وأقوى التعضيد ، ولما بالغ في وصف الأعداء بانتهائهم إلى الذروة القصوى من حسد ، وحقد ، وسوء ، وصوّرهم في أبشع وجوه خيالية شفعها ضروبا أخرى من أشكال التلوين ، إزالة عما قد ينجم من توهّم السامع المتكرّر ، وليس أقوى أداة للتوكيد والتقوية في الكلام للأمر إلاّ ما يأتي من صور معنوية .

وكما تتسم القصيدة بمعالم الجمال والرونق في التراكيب تثري عدة ألوان بيانية ، ومنها أنّ الإلوري تخيل أنّ « الفكر » كائن حسّي ، لا معنوي على أسلوب التجسيد ، وأنّه يجول ويسيح فيشاهد ملكوت الله وآياته في الخلق والتدبير ، وأنّه يملك من العقل ما يهبه العودة بنتيجة سليمة تؤكّد عظمة الله جلّ شأنه ورحمته في عباده ، وأنّ فضائل الله غادة حسناء تتباهى بجمالها وإباءتها ، ولكنّها منقادة لمن يشاء مولاها من خلقه صورة بديعة تجلى مهارة قائلها في الإبداع والتلوين ، وعندما يعمد إلى التلاحم الشّديد بين الكناية والاقتباس ، والاستعارة ، وهو تلاحم يسعى إلى خلق جوّ ملائم لمخاطبة النفس بالإقناع ، وحملها على الحجّة نرى هذا في قوله :

عذرتُ أناسا من أهل الدهاء ... وأهل الشقاء ورين القلوب
يريدون إطفاء نور الإله ... فما ساغ قط بنفخ الهبوب
فراش يحومون حول السراج ... فضاعُوا جميعا بشرّ اللغوب

openkan.com

يؤتي مغزى جليلا أنّ قوما دبّروا المكائد أسوأها ، وشقّوا عليها أنفسهم ، وطاوعتهم قلوبهم عليها سعيا وراء صدّ النّاس عن المحجة الواضحة ، ودفعهم الحقد المرير إلى الضّلال المبين ، والنأي البعيد عن رشدهم ، وأهمهم الأمر إلى التهالك بأنفسهم جميعا ، وهي محاولة يائسة إذ هم لا يقوون على إنجازها ، ولا يقدرون على تحقيقها ، والكناية في قوله « أهل الدّهاء» و« أهل الشقاء» و« رين القلوب» ، أقوى تعبير للدلالة على بيان لزوم لشيء بالشيء ، وشدّة الاقتران بينهما ، لما في الكلام من دقّة الإيحاء وقصد الإيهام ، لأنّ الصراحة والحقيقة نحو دهاة أشقياء قساة لا تفي بمعنى القوة والشدّة والغلظة التي يقصدها الشاعر ، إذ الصورة البيانية تضيف إلى هذا المعنى توكيد التلازم بين الصفات والذوات ، وبين اللازم والملزوم ، وتنقل المعنى مصحوبا بدليل أوقع في النفس ، وهذا الانتقال من الحقيقة إلى الكناية ينبئ أنّ الكلام حجّة للدعوى ، ومبرّرة للنيل من الخصم دون إخلاء سبيل له ، وأوفى بلاغة التوكيد ما تؤديه صورة الكناية من قوّة الإيجاز ودقّة الاختصار ، لأنّ أحوال أعدائهم لا يمكن استيعابها دفعة واحدة ولا جملة واحدة ، وحين يأتي قوله :

فراش يحومون حول السراج فضاعوا جميعا بشرّ اللغوب

استعارة مركّبة تؤتي صورة كائن يحاول مناضلة من هو أقوى منه ، ولا يزال يبذل قصارى جهده ، ويعاني من القلق والخوف والاضطراب ، وخصمه لم يكترث به ، بل هو على سكينة وطمأنينة واقتدار تامّ للظفر به ، والاستعارة بديعة لأنّ الشاعر لما مال إلى هذا الأسلوب بدا في أوّل وهلة أنّه قد خرج عن سنن العرب في كلامها لما قد ينجم من التدلّي للانتقال من الكناية إلى الاستعارة ، وذلك تصوير رذيل ضعيف ، غير أنّه لم يقصد هذه الناحية ، بل أراد الدقّة لإخراج البيان من التعقيد ، ولما قدّم الكناية جعل نفس المخاطب تشتدّ إلى العلم ، ويلتهب قلبه إلى المعرفة ، فجاءت الاستعارة شفاء من العلّة ، ونبعا من الصدى ، وغيثا من الجدب :

ومعلوم أنّ الشيء إذا علم أنّه لم ينل في أصله إلاّ بعد التعب ، ولم يدرك إلاّ باحتمال النصب كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه ، وأخذ الناس بتفخيمه ما يكون لمباشرة الجهد فيه وملاقاة الكرب دونه[1] .

وقد حسن هذا الأسلوب في مقام الإيضاح بعد الإبهام لتوكيد المعنى وتقويته ، فلا شكّ أنّ الاستعارة جاءت لتحقيق هذا المغزى ، وأما الاقتباس فقد لاحم الكناية ، والاستعارة في قوله :

يريدون إطفاء نور الإله فما ساغ قطّ بنفخ اللهوب

لإجلال مقام الإيضاح بعد الإبهام الذي تهدف إليه الصورتان : الكناية والاستعارة ، تقوية لهذا المعنى الذي لا تقبله النفس دفعة واحدة ، فحلّ الاقتباس نورا يتخلل ظلمتين فيضيء لهذه وتلك ، ولا غرو فإنّ الآيات القرآنية نور على نور يهدي الله بنوره من يشاء .

وظواهر البديع لم تفش في القصيدة فشوّا فاحشاً ، فالغالب أن الشاعر لم يكترث بها ؛ إذ هي لجوء العابثين بالمعاني والمستطرفين حين يتصنّعون ليخرجوا ذهنا واحد على وجوه برّاقة تاركين أحداث الناس وتيّاراتهم جثثاً هامدة ، ولا يعلمون أنهم قد كشفت عوراتهم ، وافتضحت سرائرهم بما يسترون فيه من تلميح ما يستغني عن الإمتاع .

وأما براعة الاستهلال ، فقد أنهضتها العاطفة القوية لخروج النصّ بطريق أخرى ، فاقتحم الشاعر موضوعه مباشرة غير متريّث على أطلال أو ديار وأشواق ، وهي دوافع وحوافز من لا تعظم عزائمه وهموم من لا همم له ، وغير سنن أدباء المعاني ، الذين يحرصون أشدّ حرصٍ تجيش به صدورهم في ساعتها دفعة واحدة ، وإلا فإن فواتها يتيح للبديل ، فينشأ التعاظل بين ما يراد وما لا يراد ، ويختل المقام والحال ، وربما يقال عذراً له ؛ إن موضوع النص

---

(1) الإمام عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص: ١٢٣.

ثناء على الله وحمدٌ وشكرٌ وتقديرٌ ، وقد تضمّنه الشعر خطاباً بإيحاءاته للأذكياء ، وفي هذا الحال تطاوع أهله قوّة الذهن ، ويقاسون ما تحيز في نفوسهم جنودا تقتحم الحدود حين تنقض على إحساسهم ، ولا تسامحهم في دقّة الترتيب والتنسيق ، ولكنّهم يؤمنون إيماناً جازماً بأن المخاطبين يملكون من القدرة الذوقية ما يمكّنهم من تفقّه النص ، ويحسن عذره في البيت التالي ، إذ أفصح ما رمز وصرّح ما كنّى ، فجعله تداركاً جميلاً :

فلا ينبغي لي سوى حمد ربّي على نعم فوق حصر الأريب

وأكثره وضوحا وتبيانا براعة الاختتام :

لك الحمد ربي على ما مننت وأنت السّميع وأنت المجيب

وألطف دقّة :

وما كنت إلا كما شاء ربّي من الطفل حتى زمان المشيب

يوحي إلى دقة التكامل والتقابل في وحدة الموضوع ، بينما ينثره الإلوريّ ويشعره إذ أتى منه في ادب المناجاة ؛ أن كلمة (ما شاء الله لا قوّة إلا بالله) لإثبات النِّعم ، ولا يمسّها كره ولا جرح إذا داوم العهد عليها عند الورد والذكر[1] . ومن وفّق بالخيرات فليكثرن ذلك الذكر ، فإن تلك الخيرات تدوم بإذن الله .

ومن أقوى مناط البديع مبالغة محمودة في سبع صفات تكاد إحداها أغنى من ذكر نظيرها ، وأوفى بالغرض المنشود ، وأوقع في التعبير ، ولكن الشاعر لا يروقه إلا أن يسلك هذا المسلك ليثبت أن تقوية هذا المعنى لا تلقى مطابقة إلا الوجه المبالغ ، وتلكم الصفات قد حوتها قطعة من النص :

وكنت الفقير وكنت الحقير وكنت الأسير بوادي الكريب

وكنت الجهول وكنت الكسول وكنت الجليل بقلب كئيب

---

(1) الإلوري ، عون الإمام الراتب ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده ، ص: ١٠.

إنه لمبالغة حسنة ؛ لأن الشاعر آنئذٍ ، لم تنته إليه تلك الصفات وحده ، ولكن الاعتداد التام بعبوديّة الله ، والإذلال له على عقيدة المتنسكين تسوغ لهم ذلك ، وعندئذ تعود أضداد تلك الصفات إلى الله وحده ، ويتحقق ما يرمون به البقاء والفناء ، فتحصل على موجبها المكرمة والمنقب ، والدرجة ، والمنزلة ، على أمتعها وأسعدها ، وإذا لم يكن الهدف تتبعا دقيقا للوجوه الفنية ، لأن ذلك الإطار غير همتنا ، فإن ظاهر المذهب الكلامي ، وما نشرته من ألوان ووجوه وصور خلعت على النص ظلالا وارفة لا تزال تلفت الانتباه لاسيما أن كل عنصر من العناصر يوحي إيحاءً قوياً بهذا اللون البلاغي ، فيستهل ذلك فاتحة القصيدة على سبيل الادعاء :

لقد جال فكري إلى أصل أمري ... فما آب إلا بأمر عجيب

فقد أشار قوله إشارة دقيقة إلى أنّه حرّك ذهنه ، وأعمل خاطرته على اقتضاب منطق عند تطرح بوادر الأمور ، من عوامل وأسباب وعللٍ قويت للبناء عليها مقدمات يقينية ، ويصلح استنباط نتائج وهي على مثلها في السلامة والصحّة ، وإذا أتت تلك القضيّة لبناء البرهان والحجّة ، واستوفت شروطها ، وأتت « فاء» الفصيحة لسلامة التركيب كما سلم المعنى ، ولا ينبو سائر الأبيات عن هذا المغزى الجليل ، وإلا فإن البيتين الأخيرين من القطعة :

وما نلت علماً وفضلاً بكيدٍ ... وما ذاك إلاّ بفضل الحسيب

وما كنت إلا كما شاء ربي ... من الطفل حتّى زمان المشيب

والموضوع حقاً تناسبه بلاغة المنازعة ، وفصاحة المصارعة ، أو بيان المدافعة ؛ ذلك بأن الإلوري ـ رحمه الله ـ كثيرا ما يلتقي بالخصوم على ميادين مختلفة ، وعلى مستويات عديدة مستخلصة في الفكر الإسلامي والبيان العربي ، ولمَ دائما لا يذوب في النزعة الإسلامية وحدها وحوله من القرى والمُدن اعتدلُوا وتكيّفُوا إما في الموكب الشرق الأوربي أو غربيه؟ أو لماذا يحصر نفسه في العربية وهو الوحيد البطل القائد والجندي والمحرض المؤيد وكان صنعه

لهذا اللون أقوى عُدّة وأوفر عِدّة يؤكّد القول بأن القصيدة أتت لبناء النص البلاغي على ضوء المذهب الكلامي ، وإذا تقررت تلك الشهامة والحماسة والشجاعة أمام المناوئين ؛ فإن حسن حيائه لله سبحانه وتعالى والتواضع له وإحلال نفسه منزلة العبوديّة المنقطع نظيرها والميل الشديد إلى التفويض لله ذلك الركن الشديد الذي يأوي إليه المتنسّكُون الذين يشكّل الصّوفيّون الغالبيّة العُظمَى منهم ، وإذا علمت ذلك ؛ فإن الإلوريَّ لا يكاد يلهو عن منهجه في الالتزام بين العقد الذي يختاره وحدة الاعتزال أو القُلْب الذي يصطفيه الصوفيون ، وكلاهما نعمة من الله وتقديرها وثناء وشكر لله جلّ شأنه .

ومن حسن النباهة في تلوين القصيدة قدرة الشاعر على إبداع الاستطراد ، فقد استهلّ موضوعه بالحمد والثناء على الله معدّدا آلاءه ونعمه عليه ، ثمّ منتقلا إلى هجاء أعدائه ، وحساده ، واستخلص مناقصهم ، ومثالبهم ، ومعائبهم ، وهي بلاغة شديدة القوى متينة العرى لمن قادت له قريحة لسانية لنظم الأمور بأضدادها ، وتبين منافعها عن مضاراتها ، ومصالحها عن مفاسدها ، فتتجلى منها عظمة المقابلة والطباق لأنّ اقتران شيئين ضدّين تتعالى مزاياها بالمجاورة والمصاحبة .

وأما الموسيقى ، فلا تبعد عن أداء المعاني والخصائص الفنيّة في القصيدة حيث بنيت عروضها على بحر المتقارب ، وهو يتسم بالقوة والمنازلة ، والأنس الجميل ، ووقعت قافيتها بائية مطلقة ، ودخلها الردف لإطالة الصوت ، وإيقاع النغم الصوتية في تخير روي القافية « باء » ، وهو صوت مجهور جدّ الجهر ، يناسب الموضوع لمنازعة الخصم وإفحام اللدود ، وإلى جانب ذلك تأتي دقة الجمع بين طول النفس ، وإمتاع الترنّم ، ومن هذه الأريحية الإيقاعية محاسن التكرار ، والسجع ، والجناس ، وجمل قصيرة في ثنايا النصّ ، وغير ذلك مما يخلق بين فقراته دقّة التساوي ورصانة التراكيب ، وسلامة التكلّف ، واستدامة المعنى ، ليؤتي ظلالا وارفة لتحريك جوّ النصّ وإحداث السير السريع ،

خصوصا في مثل هذا الموقف الملحمي والموضوع الخطابي الذي تشغله القصيدة .

ويحقّ هنا أن نذكر ما دار بين الناقدين على هذين البيتين من انتقادات :

لأني كتبت على صخرات فما عشتُ إلا بحفظ الرقيب

فأنبتني الله من غير ماء بأرض العراء وجوّ عصيب

قال بعضهم إنّ الشاعر هنا ينتابه الضعف والفتور ، إذ كان قصده أنّ الله قد تولى رعايته بنفسه وحده ، وجعله عصاميا ، بينما ساعدت أقرانه عوامل البيئة والزمان فتمّ نبوغهم في وسط الأثرياء ، لكن صدر البيت الأوّل :

لأني كتبت على صخرات

ليس قولا مطردا ؛ إذ أنّ نبي الله يوسف عليه السّلام كان أغرب منه حين صعد من الحمأة والطين يوم ألقي في البئر »[1] .

ودافع عنه الآخرون ، وذهبوا إلى مشيئة الله وصنعه في يوسف عليه وعلى نبيّنا أزكى الصّلاة والسّلام من جنس الإرهاصات النبويّة لا يقاس عليها ، وأنّ « مقصد الشاعر أن يبني كلامه على بلاغة التورية من سنن كلام « يوربا » ، حين يوردون تلك الصورة على معنى ذي وجهين للمدح حيث يتذكر العبد المنعم خالقه ومنشئه حمدا لله ، وثناء عليه ، وهذا هو مقصود الشاعر هنا ، والقول عندهم يؤدي معنى الزجر والتنبيه ، حين يزهو بالمرء الغرور إلى تناسي أصله كبرا وعلوّا ، فينبه ويزجر[2] .

فالقول إذًا معناه يوربوي في ثوب عربي ، ومن الواضح أنّ هذا الكلام خال عن التعقيد المعنوي لأنّ الانتقال من الحقيقي إلى المجازي والمراد ظاهر

---

(1) لاحظه عليه صديقه الحاج محمد الغزالي بن المختار ، نقلا عن دكتور عيسى أبي بكر عام ١٩٧٢م.

(2) نور الدين عبد الرحيم أولا ، صكتو نيجيريا عام ١٤١٧هـ.

ومكشوف يخيل إلى لسامع أنّه قد تبادر إلى فهمه من فحوى اللفظ ، ومما يؤكّد بلاغة الأسلوب ودخوله في إلف العرب ، وأنّ من مرونة العربية أن تتقبل إلى صدرها خصائص من ألفاظ أمم أخرى إذا ظلّت محتفظة برونقها وبهائها ، فهي ذات قابلية للحكّ ، والتصريف ، والتوليد ، لا في الصورة والخيال فقط ، بل يتعدّى الأمر إلى صنوف أخرى من أنماط وتراكيب لما روعيت فيها روح العربية وأصالتها ، ويؤيّد ذلك ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في قول أبي تمام :

رقيق حواشي الحلم لو أنّ حلمه بكفيك ما ماريت في أنّه برد

وقد استاء منه الناقدون ، لأنّ الحلم لا يشبه بالرقّة ، وإنما يشبه بالرزانة والثقل على حدّ قولهم :

أحلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جنّا إذا ما نجهل

ووجّه الدكتور هذا القول أنّ الظروف التي اقتضت الشاعر أن يغير السلوك المعتاد في سوق عكاظ ، وذي المجاز ، والمربد ، والكناسة إلى ما يطابق واقع بغداد حيث يأخذ الخليفة الأمور بالبساطة ، ويقابلها بالبشاشة والارتياح ، حتى يتمكّن من التغلّب عليها ، هو الذي أدّى بالشاعر إلى وصف الحلم بالرقّة بدلا من الثقل[1].

وعلى هذه الأريحية نرى أنّ الإلوري في هذه التورية بارع حين حاول أن يتوسّع في العربية بأنماط من كلام « يوربا » التي تعد إحدى فصائل ذوات البيان الرقي ، وما لنا نذهب بعيدا فقد كان هذا الذوق لم يخرج من سنن العرب في كلامها على نحو ما يبدو لدى البرقوني حين يعلّق على قول المتنبي:

أين أزمعت أيها الهمام نحن نبت الربا وأنت الغمام

أين أزمعت أن تسير أيّها الملك ونحن الذين لا عيش لنا إلاّ بك ، وإذا فارقتنا لم نعش ، كذلك الربا لا بقاء له إلاّ بالغمام ، إذ لا شرب له إلاّ من

---

(1) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، ص: ١٠٤.

مائه، أما غير نبت الربى فيمكن أن يشرب من الماء الجاري ، وهذا من قول الآخر:

نحن زهر الربى وجودك غيث هل بغير الغيوث يورق زهر[1]

ومن هذا المنطلق ، فإنّه يقاس كلام العلاّمة من العربي القحّ الفصيح ، فإنّ نبت الصخر ، ونبت الربى ، وزهر الربى ، تؤدي معنى وجود شيء في مستغرب المكان والمحل ، يقول ابن جني :

إن ما قيس من كلام العرب فهو من كلامهم (العرب) ألا ترى أنّك لم تسمع أنت ولا غيرك اسم كلّ فاعل ومفعول ، وإنّما سمعت البعض فقست عليه غيره ، فإذا سمعت « قام زيد» أجزت شرف بشر ، وكرم خالد ، ويؤكّد هذا عندك أنّ ما أعرب من أجناس الأعجمية قد أجرته العرب مجرى أصول كلامهم ، ألا تراهم يصرفون في العلم نحو أجر ، وإبرنم ، وفرند ، وفيروز ، وجميع ما تدخله لام التعريف ، وذلك أنّه لما أدخلته في نحو الديباج ، والفرند ، والهزبر ، والأجر أشبه أصول كلام العرب أعني النكرات فجرى في الصرف وضعه مجراها[2].

شأن الإلوري في ذلك شأن غيره من الشعراء المسلمين ، حيث يتأثّرون بكلّ ما يمت بصلة إلى العربية ليستوعبها ، حتى يتمكّنوا من هضم أنماط كلامها وبيانها ، وعندما تعدّدت أمامهم بيئات ثقافية ، واتسعت مداركهم نمت مشاعرهم ، وجاء إبداعهم مستمدّا من عيون الثقافات التي تلونهم وتقلبوا في أحضانها ممتزجين بينها امتزاجا قويّا حينا ، ومركّزين على جهة أخرى حينا آخر ، « فالأديب الفذّ يولّد دائما صورا بيانية لما يرى ، ويلاحظ من أشباه ، ومناظر ، ومخترعات ، ومادام التجديد مستمرّا فإنّ الأساليب القديمة تختصر مبتذلة ، وتحلّ محلّها أساليب جديدة طريفة ، والصور التي تضيع قيمتها

---

(1) البرقوني ، شرح ديوان المتنبي ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، عام ١٩٨٠ ، ٢٤٤/١.

(2) ابن جني ، الخصائص ، دار الهدى للطباعة والنشر ، ٣٥٧/١.

البلاغية إنّما يحدث ذلك لها بسبب تغير مناظر البيئة ، وعادات العصور ، والصور الجديدة تتولّد من مشاهد البيئة ، والزمان ، والحضارة ، ومآثرها ، وأحداث الصور البيانية الجديدة تزيد في ثروتها الأدبية واللغوية ، وتجعل اللغة سهلة القيادة ، وتدلّ على مدى نشاطنا الفكري والأدبي»[1] .

الالتزام القلبي

فهو توجّه العبد بالإحساس القلبي إلى مولاه بكامل حبّه وإيثاره وعشقه ، فيمتلئ جلاله بأقطار شعوره ، وتذكو به أحاسيسه ، ويميل إليه بخواطره للأنس به ، والاستمتاع بالقرب منه ، والدنوّ إليه ، فلا يتألم من الوجد والهيام ، لأنّ الشوق إليه طبعي ، وهو إحدى طرق معرفته ؛ إذ لم ينشئ الخلق لنزعة عقلية ، بل أودع فيه القلب ليكون مصدر الإلهام ، وبهذا يتكامل العنصر الإنساني ، وهذا الإحساس العميق بقيمة حبّ الله بالقلب ومؤانسته يتجلى في عدّة وجوه .

وينهض هذا المظهر وجدانا هاما من مواقف متوسطة اختارها الإلوري منهجا يتعادل به بين المتناحرين في عدة وجوه ومعارك شتى ، وقد علمته التجارات التربوية أن كان يستمع إلى الخصمين ويوازن عروضهما فيحكم بينهما حكما لا يجعل المحكوم له في بطر وأشر ، ولا المحكوم عليه على يأس وقنوط ، وأمثل ما يقال هنا تلك المعارك الحاسمة بين الصوفيّة ومعارضيهم الذين ينزلون في الحاضر منزلة الاعتزال في الغابر ، إذ كانوا يعتمدون في بناء عقائدهم على الذهن المفرط ، ويفرطون فيما سواه ، بينما كان المنازلون يميلون إلى النفس ، متخذين أوضاعها أسانيدهم ، لأن المولى جلّ شأنه كما هيأ للعقل ميادينه صنع للنفس مناكبها .

وأنصف الإلوري للصوفية واستحسن عبارتهم في تقسيم النفوس على مراحل سبع ، وكل مرحلة درجة يمرّ بها السالك في الرياضة من مجاهدة

---

(1) دكتور محمد عبدالمنعم خفاجي ، الإيضاح في علوم البلاغة لخطيب القزويني ، د/ ٢٠٠.

وذكر وسهر ، وجوع ، وصوم ، حتى يصل إلى الكمال[1] ، ثم دافع عنهم لما هوجموا بتداعي مسلكهم وردّ عنهم بأن جميع المصطلحات لم تقع في عصر النبوّة ولا الصّحابة ، وإنّما استحسنت عقبهم[2] وأخيراً حصر مباحث الصوفية المختلف في المجاهدات وما يحصل عليها من الأذواق والكرامات والتجليات والشطحات ، وانتهى إلى القول بأن ذلك لا يقدر أحد على مجاحدتها ما دام القوم يتورعون ، وأن لكل فئة أذواقاً لا يتفاهم في ألفاظها إلا من له بصر بها وتجربة [3].

وإذا ألقينا نظرة أخرى ؛ فإن مغزى الصوفية في النفس لا يسلك إلا على القلب من حيث اقترب اقتراباً شديداً إلى الروح لما تختصّ به من المعاني في العلم والشجاعة[4] .

وإنّما يدرك ويعي ويفكّر ويعلم ويريد ويختار ويحب ويكره[5] ولا غرو لأن الفلاسفة لم يحصروا دقّة معانٍ وإنّما راعهم ما فيه من المزايا ، ويسمّونه النفس الناطقة ، والروح الباطنة، والنفس الحيوانية مركبة ، وهي المدرك والعالم من الإنسان ، والمخاطب والطالب والمعاتب[6] ، وفي قاموس القرآن الدلالي ؛ أن القلب يوازن الخلوة حيث لا يراه أحد ، « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات ووصف القلب بالإنابة ، وهي الرجوع إلى الله تعالى بأن الاعتبار بما ثبت في القلب[7]، ومعنى سلامة القلب ؛ سلامته من آفات الكفر والمعاصي ، اللهم إلا أن القرآن الكريم بما له من حاسة قوية يوحي إلى أن وظائف القلب تتحقق في الإنسان ، وهو الخلق الذي

---

(1) الإلوري ، فلسفة الولاية ، ص: ٢٧.

(3,2) الإلوري ، المرجع السابق ، ص: ٣٢.

(4) الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن ، ص: ٤٢٦.

(5) السيد سابق ، العقائد الإسلامية ، ص: ٣٤.

(6) الجرجاني ، التعريفات ، ص: ١٧٦.

(7) الزمخشري ، الكشّاف في حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل. ١١/٤.

يجمع بين طاعة ربّه فيثاب ، وعصيانه فيتوب ، فينال أجره ، وعند تجلّي الأمرين يتلقّى نعمة ربّه ، وهو الرّحيم الغفور ، وأن التقلّب والتوجّه إلى أعمال البر ، والتجنب عن الأعمال السيئات ، بينما ترجو الكلمة «النفس» لمخاطبة الجن ، وهو الخلق الذي كثر شرّه على خيره . كما أن الروح خاصة بالملائكة لأنهم يتعاطون الطّاعة ، وينقطعون عن العصيان ، وعلى هذا يقول الإلوري :

يا كريم هب لي ... من جفاء جهلي
كم رجاك مثلي ... لم تخب رجائي
خالق البرايا ... واهب العطايا
دافع المصائب ... فاستجب دعائي
أنت ذو الجلال ... أنت ذو الكمال
أنت ذو الفضائل ... أنت ذو النوال
أنت من تراني ... تسمع كلامي
تعلم مكاني ... ثمّ لا تنساني
استر العيوب ... اغفر الذنوب
لا تؤاخذني فضلا ... يا مجيب الداعي
ارحم الفقير ... اجبر الكسير
أطلق الأسير ... لطفا منك يا إلهي
أوصل السلام ... لأهل السلام
في دار السلام ... تحية وسلاما[1]

فالقصيدة على بنائها الفكري تحوي هما عالية في تحرير مبدإ الالتزام القلبي إلى الله ، وهو أجلّ باب الاستقامة بوحدة الرجاء والخوف ، أو الرغبة

(1) الإلوري ، لقطات ، ديوانه ، ص : ١١

والرهبة عند ذكر الله ربّ الخلق والكون والحياة ، ومدبّر أمورها ، ومصرّف شؤونها ذكرا تتعمق أبعاده في القلوب ، وتقرّ حقائقه في الصدور ، وتحيا شعائره في النفوس من خلال ما تدور عليه القلوب والجوارح ، وخاصة الحاسّة اللسانية عند عملية مستمرّة لكونها ترجمان الجنان ، وأمثل مناهجها بعد كلام الله أسماؤه الحسنى ، وصفاته العليا ، وآياته المثلى ، لما تفيضه من معان جليلة ، ومقاصد باهرة ، يتلقاها العبد المؤمن المخلص من ربّه الكريم الوهاب المنّان المتعالى ، موهبة منه لا تكلّفا .

وذلك لأنّ الأسماء والصفات هي الوسائل التي تعرّف الله بها إلى خلقه ، وهي النوافذ التي يطلّ منها القلب على الله مباشرة ، وهي تحرّك الوجدان ، وتفتح أمام الروح آفاقا فسيحة تشاهد فيها أنوار الله وجلاله[1] .

ولا تتحقق مشاهدة عالم الملكوت إلاّ إذا كان الذكر على كيفية ، ووظيفية تتمثل في تدبّر ، وتأمّل دقيق ، لما يردّده اللسان ويقرّ في الجنان من أودية المعاني الجليلة ، والمقاصد العظيمة ، وملازمة تطبيقها على السلوك والتصرّف لحسن التأدّب مع الله ـ جلّ شأنه ـ أداء يليق بجبروته وملكوته غير المتناهية ، ثم تنعكس آثارها الجليلة أنوارا ثاقبة على حسن معاملته مع سائر الخلق بقطع النظر عن طبقاتهم ، وأجناسهم .

وهو جلّ شأنه لا يدانيه في ملكه سواه ، الوهّاب الحليم لم يجفه جهلا بقدره وعظمته ، وأنّ عادته أن لا يخيب كلّ من كان على هذه الشاكلة لطفا به ، وخالق الأنام ، وواهب العطايا ، ومانع الرزايا ، لا يزال يجيب دعاء الداعين ، وله الكمال أقصاه ، والجمال أبهاه ، والفضائل أولاها ، والنوافل أثراها ، يرى ويسمع ويعلم عباده أينما كانوا ، ويذكرهم برفده ، وهو بسعة رحمته ساتر العيوب غافر الذنوب ، لا يؤاخذ المذنب فضلا منه ، يرحم الفقير ، ويصلح من ساء حاله ، ويوسع من ضاق ذرعه رأفة ورحمة ونعمة ، وهو الذي يدخل عباده دار السلام ، ويحيّيهم فيها تحية وسلاماً .

---

(1) السيد سابق ، العقائد الإسلامية ، دار الكتاب العربي ، ص: ٣٤ .

وواضح أنّ تلك الأسماء والصفات تغرس في نفوس المؤمنين معنى عميقا حبّا وهياما لله ؛ إذ كانت تدور في شئون الإنسان اليومية في حركاته وسكناته ، وتعبّر عن ضرورة الجمع بين غريزة الخوف والرجاء إحساسا بالالتزام ، وهما خطان مستقيمان لا يمكن استقلال أحدهما عن الآخر ، وتبرز قوة الرجاء كما تتضح براعة الخوف بنواله وغفرانه ، ولكنّهما لا تزالان تتلاحمان في نسج الاستقامة وانسجامها في النصّ بشكله العام .

وعلى هذا المنوال من التدبّر الحكيم،والتعمّق السليم في أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا عند الذكر تعمر عظمة المولى الجليل قلوب الداكرين ، وتشرق عليهم بهاء مدبّر الكون ، فيزدادون ولاء له ، وثقة به ، وهذه السنة سجية طيّبة يمتاز بها الشعراء الإسلاميّون ؛ إذ كانوا لا يستعيضونها بدلاً ، ولا يبغون عنها حولا ، فقد أغناهم الكتاب العظيم ، والسنة الكريمة بما يحتاجون إليه من بدائع الأسماء ، وجلائل الصفات ، ثمّ ألهم الله من آتاهم الله قدرة عقليّة من العلم ، والفكر ، والفنّ ، أن يستنبطوا ما يروقهم بشرط ألا ينبو عن الذوق الإسلامي على نحو ما شرع لهم في مناحي الحياة ، لأن التجربة الفنية «القياس الموحي» نعمة شاملة للعقلية التي تقدّر عظمة الله فيما وهب عباده من العقل والذوق والملكة والوظيفة .

ويحلو أن نجلّي طائفة من العاطفة التي تقود الشاعر تلك لثقة القوية التي تربطه بموضوعه عقيدة راسخة بصفاء القلب لله ، وقدرة الإيمان به وبآلائه إلى حدّ ما يجعله قانتا لله وعلى بابه واقفا بلا بديل ولا عويض . تلك القيمة القلبية توحي بإجلال وإعظام بالعاطفة المثالية التي تعبّر عن الحلم في عالم آخر أرحب من الواقع والحقيقة ، ذلك بأن الجمع بين الأمرين المتضادين لا يقصد التناقض تحسّه النفس في وهلة بديئة ، لأن الحياة كثيرا ما تأتي على سلسلة من التناقضات ، وهذه الظاهرة تعزّز الالتزام تعزيزا قويا ، ولذا فإن الرجاء والخوف عاطفة من العواطف الصوفية الكريمة، كفت التزاما تحلّ به الاستقامة،

فهو اعتقاد جازم بأنّ رحمة الله واسعة ، وأنّها سبقت عذابه ، وشمل عفوه كلّ العصاة فضلا عن المطيعين تعلّقا به ، ليعبدوه ، ويشكروه ، ولا يكفروه ، ويزدادوا من نعمه ، والمؤمن إذا أحسّ إحساسا قويا بأسمائه أنّه كريم ، ذو فضل ، مؤمن ، كما يتصوره في أفعاله : يرى ، ويسمع ، ويعلم ، يعظم في نفس المؤمن الرّجاء إليه ، والطمع فيه ، وأنّه قارنه متدبرا كثرة ذنوبه ، وفشوّ عيوبه ، وعجزه ، وضعفه ، وفقره ، وضيقه ، قوي في نفسه خوف الله وتقواه .

على أنّ القدر الذي تخيرته القصيدة من أسماء وصفات ذات شأن كبير لمناسبة المقام ، ذلك العهد الذي تكاثر تخيّل العالم القدسي ، ونافس فيه طوائف الأديان في بيئة لاغوس ، وشهد الناس صراعات وتحديات في أيّها أقوى صراطا وأهدى سبيلا ، ولا شكّ أن النزاع قد قدّر تقديرا عظيما بطولة الإلوري ، فارتفعت إلى صفوف المجيدين للفكر الإسلامي ؛ إذ كانت الصفات التي يردّدها الإلوري ما أثبته الكتاب والسنة ، وأجمعت عليه الأمّة على أصلين عظيمين : هما الإثبات بلا تمثيل ، والتنزيه بلا تعطيل ، وأسماء الله إنّما كانت حسنى لكونها قد دلّت على كمال عظمة الله ، فإنّها لو لم تكن تدلّ على صفة كانت علما محضا ، ولم تكن حسنى ولو دلّت على صفة ليست بصفة كمال لم تكن حسنى[1] .

ولا تزال الحاجة اليوم تشتد إلى أمثال هذا الوقوف العظيم عند حدود ما أباحه الشرع تعبّدا وتنسّكا لما تفشى في البلاد من معارك جدلية تواجه واقع المسلمين ، حيث إنّ أعداءهم لا ينفكّون يسعون في إعاقة عقولهم خصوصا فتيانهم بأساليب هدّامة ، ولذا كان يلزم العلماء أن يضعوا أنماطا تطابق الذوق الإسلامي من الشعر الخفيف الرقيق الذي قادهم إليه الدعوة كما قادتهم إلى الحضارة طبيعة الحياة في ظلّ الأحوال الاجتماعية ، لإثبات كيانهم الذي تتجاهله البيئة المتصارع فيها أضرب الحياة المدنية .

---

(1) عبد الرزاق عبد المحسن البدر ، فقه الأدعية والأذكار ، دار ابن عفان ، ص : ١٣٤.

وبناء على هذا ، ناسبت هذه القصيدة أن تنهض عاطفة ربانية تخوض عدّة صراعات عنيفة ضدّ ما شاعت في المناطق الإسلامية من ابتداع الأدعية ، والأوراد ، والأذكار ، فاتخذ بعض المتعبّدين طرقا قددا تضرعا إلى الله ، وخشوعا له ، وتحبّبا وتودّدا إليه ، أو طلبا وسؤالا ، أو استلطافا ، واستغفارا ، وتشمل صيغ أنواع عدّة من الصّلوات على النبي ﷺ وحداهم الأمر إلى اصطناع ما لم يأذن به الله من سلطان ، سواء في الصيغة ، أو الأداء توسّلا واستغاثة ، فنسوا ما جاء منه سنة ومحجّة للدفاع المستميت عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وها هي ذي تتحداها خنادق منوّعة مغرية تقتنص الفتيان والفتيات ومن على شاكلتهم من ذوي العقول الضعيفة .

والمسيحية بحركاتها التنصيرية اتّخذت أغاني ، وأناشيد سبل اقتناص فلذات أكباد المسلمين ، فاكتظت كنائسها ودور الملاهي والشوارع العامّة بضروب من طروب المقطعات الشعرية ، والطبول التي تنشر عقيدة التثليث بين خالق الكون ، والمسيح ، وأمّه العذراء ، وروح القدس .

والوثنية لا تزال على بثّ أراجيز ، وأناشيد ، تنويها بشئون آلهتها الطبعية كالبحر ، والرعد ، والحيوان ، والحديد ، والزروع ، والثمار ، والزهور ، والكواكب ، والملائكة ، والجنّ ، وغيرها من الأجرام لإغواء الضعفاء المسلمين في فخها ، وتعقد سلسلة المناسبات الفاخرة المتباهية .

وكذلك ترصد العلمانية الوسائل الإعلامية من مذائع وتلافزة وآلات مسجّلة وصحون فضائيّة لبثّ أغان إلحادية ترويجا وترسيخا للفساد والميوعة والانحلال ، حتى يغوي أصحاب النفوس الضعيفة مضلّين كلّ من أخذتهم الغواية عن جادة الاستقامة ، وتتصاعد البرامج من مضمونة بالخلاعة والتكشف لقضاء الأوقات في رقصات صاخبة .

وفئة من الطوائف الإسلاميّة تقف موقف الانتقام لغيرها ، وتلقي عدّة الشتائم

إن رأت نظيرها تجيز الأغاني والقصائد لإنقاذ أولئك المستمعين ، والدين لا يمانع الشعر ولكنّه يحارب الفساد والضلال والغواية منه .

فإذا سبق أنّ الإلوري قد قام بمعالجة موضوع الذكر على صورة عمليّة ، فجعل التعليم ، والتربية ، والموعظة ، والتأليف ، والإبداع حقولا واسعة لتوعية المسلمين ، وأنّه قرّر أنّ الذكر بالتفكر لا يقلّ سنة نبويّة في تحرير العقول عن التقليد ، والجمود ، والاتباعية ، وتكملة لهذا الشوط الكبير فقد عقد الموضوع ليمثّل الذكر بالقلب من تكرار أسمائه الحسنى ، وصفاته البديعة تعبيرا دقيقا عن الالتزام خوفا ورجاء منه سبحانه وتعالى ، ولا بأس إذا انطلق من مبدإ الدعاء استعانة بالمولى ـ جلّ شأنه ـ ، وهو الطريق المستقيم لإبطال عقيدة تلك الطواغيت المضلّة ، ولما عرف من عادة المجتمع الذي يعيش فيه من الولوع الشديد بالنزوع والتضرّع والابتهال إلى من يؤمن به إلها وربّا في كلّ أمر ذي بال لدفع المضرّة أو جلب المنفعة[1] .

وعلى الصراط السوي يسير السالكون لا يعتدّون إلاّ بالله ، ولا مفرّ ولا منجى منه إلاّ إليه ، وأنّ النعمة بيده يصرّفها كيف شاء ، وكانوا يتغنّون بالرجاء والخوف تغني المعتقد المؤمن المخلص على نحو ما نرى بعضهم يقول :

لا تيأسوا من روحه ... فاليائسون الكفرة

أو تأمنوا من مكره ... فالآمنون الفجرة

ما بين خوف ورجا ... تعبد نفس بررة

امتثالا لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَايْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧) ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا

(1) وفي الستينيات وضع كتاب «عون الإمام الراتب» جمع فيه قضايا تبين وجوه السنة من البدع ، وخطبا منبرية وأوراداً وأذكاراً وأدعية تعين الإمام المبتدئ وسائر عامة الناس .

﴿ يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (الأعراف:٩٩) ، وذلك درجة وفضيلة يرفع بها الله من اصطفاه من عباده المؤمنين للقرب منه ، وللقاء به ، لأنّه إعانة منه للسعادة فكلّ ما أعان على ذلك فضيلة[1] .

« ومن هذين الوترين الخوف والرجاء المتقابلين يمسك الإسلام بزمام النفس البشرية ، فيعدّها ويمنيها ، ويخوفها ، ويرهبها ، وفيما بين ذلك يغرس البذور الصالحة التي يقصد إلى غرسها في قرارة النفوس »[2] .

أما فنية الأسلوب ، فيبدو أنّ القصيدة تتجلى فيها أشكال جميلة تواكب روح النّاس وتحركهم لما فيها من خفة ونشوة ونشاط ، فألفاظها رشيقة ، وعباراتها واضحة ، لم ترد فيها جائية معقّدة صعبة ، تفتقر في شرح معناها إلى معجمات ، بل هي جيّدة مطاوعة ملائمة للفكرة التي تسوقها . والغرض الذي تجليه ، وتشدّه قدرة الإبداع إلى دقّة التميّز والبناء .

وفي دلالات الألفاظ ؛ فإنّ الشاعر يتخير « يا » أداة النداء ، ويؤثرها لأنها قد غدت علماً شهيراً على نظائرها الأخرى عن مخاطبة رب العزة ، وأصبحت مألوفة ، ثم وليت النكرة المقصودة ، وبهذا تلاقى الأمران تلاقياً قوياً يجعل الكلام في أقصى وضوحه ، ويؤتي بلاغة الوكدة على صورة تعريف الركنين في بناء القصر ، ذلك نوائل المولى كثرت كثرة بالغة نزهته عن الشريك والند والنظير يعاكسه أو يحاكيه أو يقابله ، فحذف الأداة لأن ذكرها يخل بالفصاحة ، ويقل من كرامة المخاطب لأنه على أقلّ تقدير بأن له ثقافة تكفيه مؤونة ذكر المحذوف ، لأن الأوصاف التي ناجى بها ربّه : الخلق والهبة ودفع الضرّ ، أفعال لا تصدر إلا من الله حقيقة صرفاً ، ومرّة أخرى عاد إلى الذكر في القافية ليتعادل بين الصدر والعجز ، ولأن فاتحة الكلام بالقوة والرصانة لا تبقي على النص خلوده إلا إذا شفع بالقوافي ووقوعها على النداء ، ويثري ثراءً عظيما

---

(1) الأصفهاني ، منهاج القاصدين ، ص: ٢١٦.

(2) محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية ، ص: ١٥٥.

انتباه المخاطب على الدّوام ويحمله على وضع الأمر مناط الذكر واليقظة ، لاسيّما في قوله :

لطفا بنا منك يا إلهي ﷻ

فهل هنا غاية يقصدها المناجي تنحط فيها رحلته التوّاقة عندما تتلاشى الشأو والبعد؟ ويوقع «كم» الخبرية لتعداد نعم الله عز وجل ، وتكاثر نعمه في قوله :

كم رجاك مثلي لم تخب رجائي ﷻ

كم مثلي مرتكباً للخطايا والمعاصي وأتاك راجياً غفران ذنوبه ، وإن جاز الوجه الآخر على قول الشاعر :

كم نالني فضلا على عدمٍ إذ لا أكاد على الإقتار أحتمل

فصار كقولك : كم قد أتاني زيدٌ ، فـ«زيد» فاعل ، و«كم» مفعول فيها[1] ، وهي الفرار التي أتاه ، وليس «زيد» من المرار ، إذا صح هذا وليس هو المقصود هنا وهو يدل على القلّة ، وحال الشاعر الكثرة .

ويتخيّر أداة «ذو» ويكثر استعمالها على ثلاثة أوصاف تالية ، بعضها تلو بعض في قوله :

ذو الجلال

ذو الكمال

ذو الفضائل

ذو النوال

لأن ما ينشؤه كل من تلك النعوت تختلف مزايا ووجوها يستحيل التناوب والتبادل ، فاستقلال الذوات اقتضت تباين الصفات ، ولو عدل من هذا التركيب

---

(1) سيبويه ، الكتاب ، ٢/١٦٥.

بلا التعبير للوصف الصريح لما يصل المعنى الكنه الأول ، لأنه يدلّ على التمام والملكية النهائية التي لا يتسرّب إليها التقاسم .

ويثير وديان المعنى بموقع « ثم » في قوله :

أنت من تراني تسمع كلامي
تعلم مكاني ثم لا تنساني

فهو تعبير واف بالغرض من علوّ المكانة ، وارتفاع الصعيد في المناجاة ، وذلك أن لشاعر يثق بربه ثقة بالغة المكانة القصوى ، إذ إنّ ربه قد شمله بعطفه وعينه عليه حفظاً ورقابة ، ويجيب دعاءه كلّما تضرّع إليه وهو لا يزال عبداً ومقام المولى من المولى ، وأنى يومئذ يأتيه نسيان ربّه وكلا .

وتروقك في التراكيب من خصائصها الفنيّة روعة النداء بقوله : « يا كريم هب لي » ، على أسلوب النكرة المقصودة ، لأنّ من شاع كرمه بين الأنام حقّ له التقدير والإجلال ، وأكّد هذا المعنى وقوع الصفة المشبّهة « كريم » هنا ليناسب اللزوم والدوام الذي لا يزحزحه حال من الأحوال ، وعند النداء بالإضافة في البيت التالي يؤتي مغزى تأكيد الدّوام والثبوت ، وأنّ القادر على بدء الخلق والهبة والحماية ، ليس عاجزا عن مداومة خيره وبركته ، وتصريف أمورها وتدبير شئونها ، ومضاعفتها ومزيدها .

ومن هذه المميّزات القويّة صيغ الأمر والنهي روادفها ، لأنّ الحاجة المبرّرة تتقدمها وسائل سليمة ، ثمّ أتبعها جملا خبرية ، معرّفة الركنين لأداء بلاغة القصر معنى الجملتين ، ولوفاء غاية التوكيد والإيجاز والتقرير راعى في الأولى أن تكون الإضافة بـ« ذو » للشرف والعظمة ، وفي الأخيرة بالموصولية للتمييز ومبالغة التوضيح ، وعقد ذلك كلّه بصيغ الأمر ، وذلك سبيل أدعى للإجابة وأضمن للقبول .

ومن هذه الوجوه الرائعة إيثار المعرفة بـ« أل » على ما سواها في (الفقير ، الكسير ، السلام) ، وذلك لأداء معنى المبالغة في الوصفية إلى جانب الدلالة على العموم ، وللتعبير بالقصر .

وفي إيجاز أبياتها على الصورة العامة مغزى جليل لتحقيق القصيدة غرضها من اختصار القول ، ولو طولت وأسهبت لأصبحت عبئا ثقيلا ، وأروع من ذلك كلّه دقّة تلاحم أجزائها وقوتها ، على نمط تنشر فيه عظمة النظم والتأليف بين التراكيب يستحيل تقديم بعضها على بعض أو حذفها .

أما بيانية النص ، فمنها بناء كلمة « السلام » على أسلوب الاستعارة ، فهو إنسان حيّ غريب عن أهله يحتاج إلى من يوصله ويعرفه ، فهو صورة بديعة تؤتي مغزى الكلام أنّ ما أعدّه الله جلّ شأنه على من يشاء من عباده ، فصارت صفة لازمة تقترن بالمنعم بها لا تنفك عنه ولا تزول ، وفي إضافة جفاه إلى الجهل : « من جفاء جهلي » على سبيل المجاز العقلي للدلالة على وفاء التعبير عن المذلّة والضراعة والبراءة إلى الله ، فلماذا يزهو الإنسان الذي كانت كنوز علمه ، وبطون معرفته لا تساوي جناح ذبابة لما عند الله وهو أعلم العالمين ، ويوثر إيقاع علم الله على مكانه للمفعولية في قوله : « تعلم مكاني » وهو مبالغة في إحاطة الله جميع ما يحوي الإنسان ، وعلى شاكلة ذلك : « دار السّلام » كناية عن الجنّة والنعيم ، لأنّ من شملته رحمة الله كان مثواه ومأواه في السّلم ، والأمن ، والفوز ، ومن بدائعه الرائعة جودة الكناية في قوله « أهل السّلام » عن المؤمنين الذين أنعم الله عليهم بالفوز والنجاة لا في القيامة وحدها ، بل حتى في الدنيا ، إذ سلمت سرائرهم في الدنيا ولم يؤذوا غيرهم بألسنتهم وبأيديهم ، فحقّت لهم في الآخرة دار السلام جنة ومثوى ، وكذلك يؤتي حسن الإبداع في مطلع القصيدة ومقطعها ، وفي براعة الاستهلال بالنداء « يا كريم هب لي » دلالة على الربوبية ، ولم يمل الإلوري إلى المقدّمة الطللية ، لأنّ الشعراء الإسلاميين يؤمنون إيماناً جازماً بأنّ هذه الظاهرة دماثة خلقية تأدّبا مع الله جلّ شأنه ، ولأنّ تقديم ما يمثّل الوسيلة على طلب الحاجة أضمن النجاح للراجي ، وأدعى الإجابة للراغب ، ومن ثمّ بسط رجاءه إلى مولاه عظيم المنن ، وجعل الألوهية ختام مسك وجها مقابلا لما في المطلع من وصف الله سبحانه وتعالى ، وقد جرت عادة المنّان أن يستهل كلامه مع عباده المؤمنين بالربوبية

للتعريف به ، والمسارعة إلى الإيمان به ، والمنافسة فيه ، ثمّ تأتي الألوهية خاتمة الكلام لتقرير العقيدة وإثباتها ، وحمل النفس على صرامتها .

وفي استخدام صور من الاقتباس تقوية للمعنى ، وإثراء للغرض في دعائه لمن سبقوه بأن ينزلهم الله سبحانه وتعالى في دار السّلام ، لأنهم اعتنقوا الإسلام وفاء بوعده في قوله تعالى :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴾

(الفرقان: ٧٥)

وقوله تعالى :

﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٧)

امتثالاً بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠).

ومن هذه الأغراض الجليلة التي تسوقها بلاغة النصّ حسن التقسيم ، والطباق ، والمقابلة ، والتصريع ، ومراعاة النظير لإقرار مغزى المقصود .

أما الموسيقى ؛ فإنّ الإلوري قد أطلق على عروض القصيدة (البحر الكريم) وجعل تفاعيله (فاعلن فعولن فاعلن فعولن) أربع مرات ، إلا أنّه يبدو مجزوء الرمل ، ومهما يكن الأمر فإنّ العروض والقافية تتلاحمان مع روح القصيدة ، لتضفيا عليها ظلالاً وارفة من النشاط والأريحية والنبض ، ومع تباين القوافي واختلاف الروي ؛ فإنّها لا تزال تحدث في الإطار العام جودة الإيقاع الصوتي ، وتحقيق الهمس حين يناجي النفس مباشرة ، لأنّ الحديث الذي يوحي إليه حي يملك جاذبية الإحساس ويحرك الكامن .

ومن الملحوظ ، أنّ العلاّمة قد تأثّر بالسيدة رقية جدّة الشيخ عثمان بن فودي رحمة الله عليهم جميعا في مقصورتها التي ورد مطلعها :

الكـريم يقبـل تائبـا أتـاه   لا يخـاف بخسـا كـلّ مـن رجـاه

واستمرت تقول :

تب لعلّ تـرحم يـا أخـي واعلـم أنّ في جهـنّم سـجن مـن عصـاه

ثم مـن تمـرد في لظـى يصـفَد من عصى محمّـدا هكـذا جـزاه[1]

وتقع القصيدة في أربعين بيتا ناجى بها ربّه ، وشاعت في المنطقة شيوعا عظيما ، إذ كان الناس لا يزالون يتغنون بها في المحافل ، والمواسم ، وفي المدارس ، والمعاهد ، وفي المساجد ، والجوامع ، وبلغت أنها تلقّن الأبكار توصية لهن عند عقد زواجهن للعمل بها حتى يزهدن في أغان هاتكها المروءة، والعفة ، ويعشن في حرمة أزواجهن قانتات عابدات .

وعلى هذا ، فإنّ الظرافة الشعرية قد غذت هوى الناس وشغف نفوسهم ولعها ، فأقبلوا عليها إقبالا شديدا على اختلاف طبقاتهم ، ومن العلماء من قام بتخميسها ، كالشيخ محمّد بن جبريل بن إدريس[2] .

ومهما يكن الأمر ، فإنّ القصيدة تحاكي الموشّحات الأندلسية في نظامها الخارجي لكونها منظومة غنائية غير سائرة على الموسيقى التقليدية المعروفة لدى القدماء بالتزامها وحدة الوزن ، وروية القافية يحكمها التقابل في الأجزاء المتماثلة ، فهي تتألف من أربع فقرات تكون كلّ فقرة فيها بيتا ، والبيت هنا ليس كالعرف في القصيدة ، لأنّ بيت الموشحة فقرة ، أو جزء يتألف من مجموعة أشطار ، وكلّ فقرة من فقراتها الأربع تنقسم إلى جزأين ، وكلّ مجموعة تنتهي بقافية متحدة فيما بينها ومغايرة للمجموعة التي تقابلها ، وبهذا نؤكّد أنّ قصيدة الإلوري سارت على سنن الموشّحات الأندلسية في نظامها ، إلاّ أنّها وقعت أقرع لم يتقدّمها مطلع ، وتداركها صاحبها وشفع كلّ بيت من أبياتها بلفظ الجلالة مردّداً في مطالعها ومقاطعها ، وعلى الرغم من ذلك ، فإنّ

(1) الإلوري ، مصباح الدراسات الأدبية ، ص : ٢٣ .

(2) ويذهب الشيخ قريب الله بن الشيخ ناصر الكبري إلى أن قائلة هذه القصيدة أم هانئ الأندلسية ، وأنها أقدمت إلى البلاد واستوطنتها حتى توفيت. انظر له الرسالة الجلية لمكانة نيجيريا العلية ، ص : ٦١ .

هـذه القصـيدة تنسـجم في نظـام الموشّـحات ، إذ تنطبـق عليهـا قواعـد أخـرى متجلية في مصطلحات الدور ، والبيت ، والقفل ، ولا يؤاخذ عليها صاحبها ؛ إذ صـنعها لـذوي الظرافـة ، وهـم لم يفقهـوا العربيـة فقهـا يمكـنهم مـن تـذوّق الخصائص والدقائق ، ومن الثوابت القوية على انتماء النصّ بالموشحات سمة التغني بالحبّ الإلهي ، وهيامه ، وعشقه ، وشوقه ، فهي ظاهرة جليلة أفرغ فيها الوشـاحون العبـاد ، والنسـاك قـوالبهم ، إذ رأوا المترفـين منغمسين في وصـف مظاهر الملاهي وزخارفها ، وتأخذهم أنشودتها بالرونق ، والأناقـة ، يقـول ابـن خلدون :

وأما أهل الأندلس ، فلما كثر « الموشّح » في قطرهم وتهذّبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخّرون منهم فسموه بالموشح ينظمـون أسماطا وأغصانا ، فكثروا من أعاريضها المختلفة ، ويسمّون المتعدّد بيتا واحداً ، ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القصيدة[1] .

وعلى هذا الأساس من الجدية والطرافة واللطافة في ألوان لتبتّل والحضـارة كانت تعيش بيئة لاغوس ، وما يمتدّ إليها مـن مـدن غـذتها المدنيـة ، وتعـدّدت فيها مناكب الحياة الظريفة ، وامتلأت فيها أغان وأناشيد مختلفة الألـوان متباينـة الاتجاهات[2] .

والحق أنّ الإلوري قد تمسّك بهذا المـنهج ، وراعـى في الـنصّ شـروطا فنيّـة فصنعه صناعة جيّدة ، وأخذ بالاعتبار اختلاف الأذواق من عوام وخواص لقصـد ضمّهم على ما يناسب كلاً منهم ، فبسط القصـيدة تبسـيطا يسـهل علـى الجميـع تذوقها مع تباين ملكاتهم ، يقول القاضي الجرجاني :

---

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ص: ٥١٨.

(2) على هذا الإحساس نلقي ديوان صديقه الشيخ ناصر الكبري يحوي عديداً من أغان إسلامية تطابق أذواق المتوسطين ، وقد يسعف ذلك بطبول البنْدر ، وعده من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة لإمالة العوام عن الملاهي الخبيثة ، وكما صنع الوزير جنيد من أمثال ذلك تلبية لأذواق المتوسطين .

ولا آمرك بإجراء أنواع الشّعر كلّه مجرى واحدا ،.ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني ، فإنّ المدح بالشجاعة والبأس يتميّز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس ، والمدام ، فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به وطريق لا يشارك الآخر فيه[1] .

فلا جرم على الشاعر أن يقوم في أسلوبه موازنا بين المخاطبين المختلفين في الأذواق ما دامت الفطانة الأدبية قد ألهمته مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ويقبل عذره في هذا لما رواه هو عن مواقف الأدباء الإسلاميين الذين دفعتهم أمانة دينهم إلى استعمال لغات أقوامهم عند مخاطبتهم بالشعر ، فيقول :

لقد أحسّ الوعاظ بفائدة هذه الأشعار ، واهتمّوا بها في غرب أفريقيا ، وللشيخ عثمان بن فودي قصائد نظمها بلغة هوسا ، ولغة فلان ، ولتلاميذهم وأتباعهم من كلّ قبيلة قصائد كذلك ، حتى قال لأحدهم « ومهما تنسوا من أقوالي ومواعظي فإنّكم بدون شكّ لا تنسون أشعاري وقصائدي[2] .

ومن المقرّر أنّه قد وضع قصائد أخرى أنزلها في أذواق العامّة ، حيث ترجم بعض فقراتها إلى يوربا ، واحتذاه فيها كثير من الشعراء والمغنين المسلمين ، فأشبع رغباتهم وأنهم ميولهم ، وأصبحت تلك القصائد الجيّدة تطارد الخلائع من الألحان ، والأنغام المعادية لروح الإسلام وقيمه ، فلا غرو فقد لقي له أسوة في العلماء المسلمين على اختلاف أجناسهم ، وألسنتهم ممن رأوا ضرورة لازمة أن يقرضوا أشعارا وقصائد في النصح ، والتذكير ، والوعظ ، والإرشاد ، يعلّمون بها أقوامهم ، ويرشدونهم على هدى من أوزان ، وبحور عربية .

---

(1) عبد العزيز الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ص: ٣٤.

(2) الإلوري ، مواقف متوسطة ، ص : ٦٤ .

وعلى شاكلة جدّ القول عن الالتزام في القصيدة السابقة تقع نونية التعبير عن شدّة تعلّق قلبه بالله وهيامه به ، فيقول :

يــــامن يـــــراني ولا أراه ... وهــــو يجيــــب المضــــطرين
يـــا خـــالق الأرض والســـما ... يـــا رازق الطـــير والجـــنين
يـــا واهـــب العمـــر والحيـــا ... يـــا قـــابض الـــروح بـــالمنون
يـــا خـــالقي يـــا رازقـــي ... اختـــــاري في العـــــالمين
بـــأن أقـــوم بدينــــه ... مـــن بـــين قـــوم منكـــرين[1].

وواضح أنّ النونية لا تختلف عن سابقتها من حيث التوجّه القلبي مناجاة لله ، وتلذذا بذكره ، وعكوفا على أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فالله جل شأنه يرى عباده ولا يرونه ، ويحيطهم بعلمه وبشمول عطفه ، يجيب دعوة المضطرين ، فهو الخالق الرازق المعمّر المختار من يشاء من عباده لحمل رسالته إلى خلقه ، وإن كانوا منكرين ، اللهم إلاّ أنّ هذه النونية أطول من الأولى ، بل هي أوفر مادة من جميع قصائد الديوان ليس في كثرة أبياتها فقط ، بل كانت تستوعب عدة قيم جليلة من أصول الأدب الإسلامي مما يدلّ على قدرة صاحبها في الإبداع ، إذا ما أسعفها بحلل من التصوير الخيالي للعواطف والمشاعر ، لا على التعبير اللغوي عن نزعات عقلية جافة تقتحم قوّة الإقناع المنطقي ، بل للاهتداء إلى لباقة وقدرة أدبية فيخلق في فنّه عروة التآخي بين غزارة العقل وعمق التفكير ، وبين شفافية القلب وقوّة التأثير ، وتأسيسا على ذلك أضاف الشاعر أسماء وصفات ، وكرّر أخرى شوقا إلى الله ، وولوعا بذاته العلية ،وهو موقف ينبئ أنّ قصده هنا ولوج إلى الله من باب الشوق إليه والأنس به ، والرضا خلال تدّبر إحسانه ومواساته وانتداب نصرته ، وقمع أعدائه ، وهو الذي لا يزال واسع آلائه وموالي بركاته ، قديرا على إنشاء أصناف مضاعفة في

---

(1) الإلوري ، ديوانه لقطات ، ص: ١٦.

ظروف عدّة ، وبذلك يستقرّ في قلب المؤمن حبّ الله والتودّد إلى لقائه سبحانه وتعالى ، وإيثاره على من سواه ، يقول أحدهم : « إنّ ورود أودية تلك المعاني لا يتم إلاّ لصفوة من عباده وأوليائه ، وكلّما بدا لهم وارد منه ازدادوا شوقاً إليه ، ومحبّة له ، فإذا انضمّ داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلف عن محبته »[1] ، اللهم إلاّ أنّ طبيعة هذا الديوان في خوض معارك الحياة والانتصار لكلّ ما ينتمي إلى الإسلام والحنفية تجعل الدارس لا يقف عند حدود السطح ، بل تفرض عليه أن يتعمّق في أبعاد قضاياها ، ولما يمتاز به نتاج العلامة من موسوعية المادة سواء في حجمه من صغر أو كبر ، وقلة أو كثرة ، وفي تنوّعه فنّا ، أو علما ، ولما يحمل مغزاه من مقاصد وعظائم نتيجة ما اختزنته ذاكرته من ألوان وتيارات ثقافية كوّنت له عقلية واسعة منذ أن احتكّ بزمانه ، وما يموج فيه من معتركات خصوصا ما أغفل البلاد من روافد أجنبية هائلة مختلفة الأشكال والألوان ، فتلاقت بيئات مترامية متعدّدة العقائد والعادات والحضارات ، وما يعم ويدق من آراء طوائف إسلامية ومذاهب دينية واتجاهات ثقافية ومنازعات سياسية ، وما لزم من تتبّع طرائف عقائدهم وألوان نفسياتهم ، وأنّه ليس مما نهل في داخل البلاد فقط ، بل تعدى إلى نماذج إنسانية عالمية من تلك الشعب ومناهجها ، فصنع لنفسه سلطانا عقليا يفيض بإذكاء الذهن من المعاني الحسية والعقلية ، فامتلكت قدرة التحليل والتعليل والاستنباط ، وأنّه قد نهض بتغذية أذواق معاصريه على اختلاف هذه الألوان الثقافية ، وغدت هذه التيارات كلّها تأخذ شكلا عامًّا وتبرز سمة واضحة حمالة الوجوه والمذاهب والمناهج ، وبناء على ذلك كلّه فإنّ صدر مطلع القصيدة :

« يا من يراني ولا أراه »

---

(1) ابن قيم ، طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ص : ٢٢٨.

يوحي إلى أنّه على الرغم مما عرف به من إيمان قوي بالله واعتداد بحبّه وأنّ المولى ركّب في ذاكرته حسّا مرهفا يعينه على إدراك مواقع الأمور قبل حدوثها ، وأصبحت ثوابت فكره تغدو سوابق عصره ، فهو يفصح إفصاحا قويا بأنّ المولى جلّ جلاله يراه وهو لا يراه محض الحسّ .

والواقع أنّ رؤية الله قضية حساسة شهدت سلسلة حلقات بين المفكّرين في بلادنا ، فبينما ينفيها اللادينيون الذين لا قدم لهم في الشرع و لإيمان ، ويثبتها الصوفيون نسقا وذوقا ، ويقرّ بها العقديّون عقلا وشرعا ، ويتباهى بها أدعياء الدّين والعلم لجلب الشهرة والصيت ، والشاعر ذاته في مواقف أخرى يثبتها استنادا إلى ما جاء منه تعليقا على قول اللقاني :

للمؤمنين إذ بجائز علقت هذا وللمختار دنيا ثبت

« ورواية عن عائشة ، أنّها قالت : يرى أحدكم ربّه حتّى يموت» ، أما رؤية المؤمنين في المنام ، فقد وقعت لعدد من الصالحين ، فمنهم الإمام أحمد ابن حنبل . [1]

وفيما يقول في الدفع عن الصوفيّين :

إن التفاني في حبّ الله والتجرّد عن كلّ شيء عند ذكر الله وعبادته ، فذلك لا يمكن أن يكون إلا لطبقة خاصّة من الناس الذين جلبوا على مثل ذلك بطبعة خاصة ، ولا ينبغي أن يلام أمثال هؤلاء على تفانيهم في الله لأنا رأينا العاشقين من الناس ينسبون كلّ شيء إلى محبوبهم[2] .

والثابت ، أنّ الرؤية التي ينفيها عن نفسه هي الإدراك المطلق الذي ينهى دعواه قوله تعالى :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

(الأنعام:١٠٣)

---

(1) الإلوري ، شرح جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني ، ص: ١٧.

(2) الإلوري ، فلسفة الولاية ، ص:٤٤.

قال الزجاج : أي لا تبلغ كنه حقيقته ، وأخرج ابن جرير لا يحيط بصير أحد به : [1]

فالمعنى هو الإدراك لا مجرد الرؤية التي ينعم الله بها على عبده الذي اختاره من شدّة الشوق إليه ، والأنس به ، ولا يتصوّره إلاّ لشيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه آخر ، والأمور الإلهية لا نهاية لها ، وإنّما يكشف لكلّ عبد من العباد بعضها وينفي أمورا لا نهاية لها ، والعارف يعلم وجودها ، وكونها معلومة من الله تعالى ، ويعلم أنّ ما غاب عنه علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال العبد متشوّقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة ، وينتهي الشوق الأوّل في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمّى رؤية ولقاء ومشاهدة ، ولا يتصوّر أن يسكن قلب المشتاق في الدنيا[2] .

فإذا امتنع الإلوري عن ادعاء الرؤية الحقيقية الصرفة ، فإنّ له قناعة وإحساسا قويا بمولاه ، وما رأى من آياته الباهرة في أسمائه وصفاته قد تجلّت حقائقها في ظواهر الكون والطبيعة التي تغنى فيها بقيثاره تغني العبد المخلص لمولاه ، ولا يزال يؤمن بأنّ كثرة هذه النعم أوجبت عليه أن يرجو منه ما يوزعه بشكره وثنائه ، وأن يتوسّل إليه لطلب المزيد والمضاعفة ، يقول :

ولم أزل ثم أرتجي زيادة الخير باليقين
من عند ربي ذي الجلال بفيض خير المرتجين
ما كان ربّي يخيب راجي ولا يردّ السائلين

ومن هذا المنطلق ، فإنّ الاعتداد بالاستقامة على الرجاء والخوف في معاملة الله وملازمته ومطالعة أسمائه وصفاته على سنن الكون ونواميس الطبيعة بعد كلام الله أكبر طريق الاهتداء إلى معرفته جلّ شأنه ، ولكن إذا تورّع العبد في هذا الذوق متنسّكاً تنسّك المنيب إلى الله فذلك نصيحة غالية إلى بعض

---

(1) الإمام الشوكاني ، فتح القدير ، ١٤٨/١.
(2) الأصفهاني ، منهاج القاصدين ، ١٤٩/١.

المتطرّفين المتعبّدين ممن يصطنعون كرامات ، يشرعونها صكوكا لمريديهم وكلفوهم بتلاوة أذكار لمدة معدودة ، ثمّ يأتون إليهم بعد سائلين عما رأوا فإذا أجابوا بلا وصّوهم بمواصلة العمل حتى إذا جاءت الليلة التالية «أتى الشيخ أو المقدّم إلى نافذة الحجرة من الخارج ، وولع على المريد شعلة قويّة . . . فيندهش المريد الجائع ، ويعتقد أنّ ذلك النور هو الذات الإلهية ، وسرعان ما يدخل عليه الشيخ فيهنئه ، وبذلك تنتهي الخلوة فينصرف المريد الساذج إلى منزله مسرورا»[1] .

ومن ثَمّ تبرأ الشاعر إلى الله مع المتبرّئين في الكرامات ، وما توقعهم فيه من فتن عند الناس ، فأصبحُوا لا يتمنّون ، بل ينصحون المريدين أن يقفوا عندها وألا يجعلوها همتهم في العبادات ، ومن بين هؤلاء المتورّعين من يقول:

وأما الرؤيا ، فهي الإقناع والإمتاع ، فإنّها لا مستحيل للمؤمنين في الآخرة ، لقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، وحديث الشيخين إنّكم سترون ربّكم كما ترون القمر ليلة القدر ، ورؤية القلب التي هي عبارة عن أمر يعلقه الله تعالى في القلب النائم وهو الرؤية ، أو عن دوام استحضار في صفاته تعالى ، ونعوت الإكرام ، وهو المُسمّى بمقام الشهود[2] .

وفي أواخر حياة الشاعر تجدّدت خصومات حُسَّاده ، ولعلّ هذه المرحلة أخطر من الأولى إذ لم يعادوه عن جهل مواقفه وغموض نواياه ، ولكنّهم ناصبوه العداوة على حقائق ثابتة ، وحجج ساطعة ، يقول :

كم من بلايا كم من خزايا ... كم من رزايا كم ما يهين

حلّت عليّ من الأعادي ... من كافرين وحاسدين

ومن نصارى ومسلمين ... رجوت ربّي على اليقين

---

(1) علي أبوبكر ، الثقافة العربية في نيجيريا ، ص: ٢١٧ .

(2) أبو بكر جومي ، النصيحة ، ١/١٨٠ .

في دفـــع كـــلّ بليـــة   وشـــماتة مـــن شـــامتين
فوجـــدت ربّـــي كمـــا رجـــوت   يـــؤيّ ســـؤالي كـــلّ حـــين
كنـــت ذلـــيلا صـــرت عزيـــزا   بفضـــل أكـــرم الأكـــرمين
كنـــت فريـــدا صـــرت عديـــدا   يـــا ليـــت قـــومي يعلمـــون
بـــأنّ ربّـــي أعـــزّني   لعلـــهم يتـــذكرون
وإن نبـــذوا كـــلّ آيـــة   فـــإنّهم ســـوف يســـألون

ومجمل القول إنّهم لم يعادوه إلاّ لنعمة الله حسدا وبُغضا ، بأن اختاره جلّ شأنه لمهمة الدعوة إلى سبيله ، وإذا كانت معاني القطعة على ظواهر ألفاظها ، فإنّ البيت الأخير يستوقفنا أن نعرض جملة معارك أخرى نصره الله فيها على حساده على النحو التالي :

١- اتّهمه الملوك بالتطرف والثقة الفاترة بالإسلام منهجا وحياة ، لما يردّده من المقولات لإعادة الخلافة الإسلامية وأمجادها الضائعة ، ومن ذلك يقول : « إذا كان عهد الإسلام في نيجيريا قديما كهذا ولا يزال كذلك ، وكان العلماء والأولياء قد عمروا بلادنا قبل هذا الوقت وكان عدد المسلمين فيها يبلغ ثمانية عشر مليونا فما الذي طمس مركز نيجيريا في العالم الإسلامي »(1) .

٢- عاداه هواة الإنكليزية من علماء المسلمين المستغربين ؛ لأنه لم يتخذ الثقافة الأجنبية وسيلة حمل أمانة الإسلام والدعوة إليه . وردّ على ذلك : « ولو وقف الأمر عند أبطال الإنكليزية الذين اشتهروا بها من أوّل أيّامهم لهان الخطب ، ولكن الغريب المدهش أن نجد رجال العربية الذين اشتهروا بها من أوّل أعمارهم انقلبوا إلى أبطال الإنكليزية فجأة يصفّقون لها ويرقصون

(1) الإلوري ، أشعة العقول والنقول ، ص : ٩ .

obeikan.com

في ميدانها ، لذلك انضممت أنا إلى معسكر العربية ، وإن لم أكُن فيه بطلاً فسأظل جندا مجهولاً أصفق وأرقص في خلفها كما يقول الشاعر :

لا تحسبُوا أن رقصي فيكم طرب والطير يرقص مذبوحا من الألم»[1] .

٣- حسدوه على ما سلكه في مجال التربية والتدريس ؛ إذ اعتبروه تجارة رائجة فزاحموه في إنشاء معاهد ومدارس ، وجوامع ، ولكنهم يستعجلون دون أن يستوفوا مؤهّلات علميّة تبوؤهم مكانة المسئولية وهم « كمن يستعجلون الفطام قبل الرضاع ، والولادة قبل الحمل ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، مثلهم في ذلك كمثل سرب من الدجاج يبحث في الأرض فإذا عثرت إحداها على دودة جرت الأخرى وراءها لسلب هذه الغنيمة منها ، وتركت ما في الأرض كأنّها أوحيت إليها أن لم تبق هناك دودة أخرى ، والديدان عديدة في الأرض»[2] .

٤- ناصبته العدوان حركات التبشير والتنصير لأنّه جعل شوارع لاغوس مسارح الحوار الفكري بين المسيحية والإسلام ، وكان النصر لا يزال فيها حليف المسلمين من قوة العارضة ، وسلامة المنطق وجودة الاستدلال ، ولم تستطع تناقضات مسيحية أن تتصدّى لحقائق الإسلام وبراهينه التي فطر الله عليها عباده[3] .

٥- وأدهى وأمرّ أنّ فئة من تلامذته (عام ١٩٦٧م) ، انشقوا عنه معادين له ومتهادنين مع الطغاة مستكبرين ومتجاهلين عليه حقيقة الهدف الأوّل من تأسيس المركز (عام ١٩٥٢م) الذي بيّنه في قوله :

---

(1) الإلوري ، الصراع بين الإنكليزية والعربية ، ص: ٢١.

(2) الإلوري ، نظام التعليم وتاريخه في العالم الإسلامي ، ص: ٥٤-٥٧.

(3) شهدت مدينة لاغوس على بكرة أبيها سرعة اعتناق من شرح الله صدورهم للإسلام من أساقفة ورهبان خصوصا أعوام ١٩٧٤م - ١٩٧٧م.

إنّ تأسيس هذا المركز إيجاد مجموعة مؤمنة مثقّفة تكون قوة إسلامية عاملة في هذه البلاد التي كادت تفقد إيمانها ودينها تحت قيادة واحد رشيد ، فلم نستطع حتى الآن تكوين هذه المجموعة ، بل بالعكس ، فحلّ التفرّق محلّ التجمّع ، ونزلت العداوة منزلة الوحدة ، وكان الضعف مكان القوّة ، فصارت مشاكل أبناء المركز في الداخل أشدّ وأكثر من مشاكل الأعداء في الخارج»[1].

وعلى هذا الأساس نلقى البيت :

وإن نبذُوا كلّ آية فإنهم سوف يسألون

ينبئ عن مغزى جليل من قدرة الاستيعاب لسلسلة من الحلقات انتهت بنصر من الله له على أعدائه ، وهي تكفي عبرة للمعتبرين إن كانت لهم قلوب واعية وبصائر حكيمة ، ولكنّ ما يملي عليهم أولياؤهم الشياطين من زخرف القول ختم على قلوبهم عنادا ، فيستخفون بالحقائق طغيانا وكبرا .

والخطاب هنا أصدق على فقهاء الإسلام وأحبار النصارى ورهبانهم دون أن يماطلوا الإرشاد أو يماكسوه ، وألا يكتمُوا من الحقّ شيئا لغرض عاجل هابط متهادنين مع الظلمة ، ذلك بأنّ الدلائل الواضحة تؤكّد صحّة موقفه عندما بذل العلم لأهله ، وعفّ في أموال الناس وأعراضهم ، وصدق في الدعوة ، وهي أمور جديرة بالاعتبار والتبصّر فيها على نحو لا يترك مجالا للمكابرة والمعاندة ، بل يلزم كلّ المخاطبين بالاقتناع ؛ إذ جرّبوه غير مرة فأدركُوا صدقه ، ولا يقلّ عجز البيت :

« فإنهم سوف يسألون »

قيمة وجودة واقتباسا من آيات كثيرة على سبيل المحاجة المبرّرة لمقامه ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف:٦). وبهذا نرى أنّ البيت يصوّر في دقّة التركيز مواقف المرسلين ،

---

(1) الإلوري ، كلمته في المؤتمر الأول لطلاب المركز عام ١٩٦٨م، مجلة صوت الإسلام ، العدد الأول ، ص : ٤ .

ومن سلكوا سبيلهم من أئمة ووعاظ ومعلمين حين بلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة ، غير أنّ أممهم لم يؤمنوا ، بل سوّل لهم الشيطان الضلال ، وارتكبوا العناد ، فكفل الله عباده بعنايته ، وجعل في أفواههم قوله : ﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ (يس:٢٦،٢٧).

وعلى الرغم من ثقته بالله وشدّة رجائه فيه ؛ فإنّه لم يؤمن مكره ، ولم يعتد بعمله ، فذلك غرور وزهو وكبر ، ولم لا يثنى العبد على ربّه الذي بدأه بالحسن فخلقه من عدم ، وأعزّه من ذلّ ، وأكرمه من مهانة ، بل كان ولا يزال يرجو رحمته فضلا منه ، أسوة بصفوة من عباد الله الذين أتمّ عليهم نعمته حين آمنوا بربّهم ورسله ، وعظّموا حرمات الله فيهم ، ولم يرد أنهم صلّوا وصاموا ولم يقيموا حدود الله وشرائعه ، فجزاهم الله بالحسنى ، وهم من أتباع سيّدنا موسى وعيسى عليهما وعلى نبيّنا أزكى الصّلاة والسّلام ، فيقول :

فكم رأينا من لم يصلّوا ... ولم يصوموا في الأوّلين
لكنّهم سعدوا أخيرا ... وحوسبوا في الصالحين
منهم حبيب النجار يدعو ... يا قومي اتبعوا المرسلين
ورجل مؤمن بـ«غافر» ... وامرأة فرعون ذي العيون
صاروا من السعداء حقّا ... على الأرائك ينظرون
ما ذاك إلاّ بفضل ربّي ... بلا حساب من الثمين
فامنن عليَّ بمثل هذا ... فضلا بسلطانك القمين
يا ربّ حقّق حسن ظنّي ... كما فعلت للسابقين

إنّ السنة التي يحييها الشاعر ذات سند قوي تمتدّ إلى طائفة ممن قبلنا من المؤمنين ، ومنهم رسل أنطاقية الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى :

﴿ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾

(يس:٢٦،٢٧)

ومنهم آسية امرأة فرعون التي استهدفتها نكالا ووبالا أيدي سفاكي فرعون ـ لعنة الله عليهم ـ حين تقول :

﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التحريم: ١١) .

ومنهم « حزقيل » الذي آمن بموسى عليه وعلى نبيّنا محمد أزكى الصّلاة والسّلام ، وحكى الله عنه في تسع آيات ، وهذا الاستيحاء يلقى مكانا جليلا في الجودة لمطابقة المقام ، وهو بسط الرجاء إلى الله لنيل رحمته ، إيمانا قويًّا يعمر القلب للأنس بالله تعالى دون اغترار بالنسك ، فهو الذي يغرس في نفس العبد الإنابة والتبرأ إليه ، وأنّ كلّ ما أدّى في وجوه العلم والدعوة والنسك لا تقوى على مقابلة آلائه إلا بمثابة الشكر والثناء على المنعم ، ولذا كان ينبغي من الله جلّ شأنه أن يديم نعمته عليه ، وشهد الكاتب في مناسبات عدّة كيف يذرف الدموع من خشية الله إذا حقّق للإسلام نصرة ، أو أنجز عزّة ، فقوبلت بإطراء المدح من قبل أمثاله العلماء ، تنسّك متبرئا إلى الله وعيناه تفيضان من الدمع ألا يرثه التمدّح الكبر والعجب ، فيحرم من الأجر والثواب من الله ، وفي الوقت نفسه ، فإنّ الموقف يحسن موعظة حسنة ونصحا أمينا للذين أهلكهم الغرور ، وزلّ بهم التعالي والاغترار ؛ إذ يحسبون أنّ غاية الإسلام القصوى تنتهي بقضاء أوقات معدودة على عبادة ونسك ، دون أن يلووا على وجوه أخرى في البرّ والإحسان ، فلا يهمّهم أن تنتشر في البلاد المجاعة والمسغبة والوباء والبلاء ، ولا يبالون إذا ضاعت حقوق الفقراء والمساكين ، ولا يهولهم ما ينقصهم من الخلق الوظيفي الإسلامي غير منطقهم الوحيد « تعال بُكرة » خطابا للمعوزين والهلكى من الجوانح المدمّرة ، والله المستغاث .

وثلة آخرون لا ينفكّون يتخذون مناسكهم وابتهالاتهم مكاسبهم متّجرين بآيات الله وما توارثوه من أوراد غير عابئين بأن يشتروا بها ثمنا قليلاً ، وأن يذهبوا بدنياهم ما أعدّه الله لهم في آخرتهم من طيّبات ونعم وآلاء ، وما أمثلة ذلك بقليل ولا خاف .

ومن هذا المنطلق ، فإنّ المنهج المستقيم في اكتساب محبّة الله ما بيّنه كتابه الكريم والسنة المطهّرة ، وآثار السلف الصالح من الأسماء والصفات القديرة على منح العبد مواجد تثبت الإيمان به والقربة منه والثقة به ، والإنابة إليه ، ولا يعبد بحقّ الضراعة والمذلة سواه .

وحقيقة أنّ للمولى سبحانه وتعالى أسماء أعظم إذا دعي بها أجاب ، وإذا سئل بها أعطى[1]، وأنّه قد امتنّ على صفوة من خلقه وأباح لبعضهم أن يستنبطوا على مدى الفهم القوي من الكتاب والسنة ما يروقهم ، وأنّه قد تواتر أنّ أمثال ذلك قد جرى على ألسنة خيرة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان لطائف من أسماء الله وصفاته ، ولكنّه قد كفى من دون هؤلاء مئونة التكلف لاختلاق نعوت لا تليق بجلاله ، وما دام المولى واسع النعم قد بيّن الهدى ، ويسّر اهتداءه ، ووضع الشرائع والقيم العُليا تبيانا ممن اصطفاهم حملة رسالته وجاء منهم سيّدنا محمّد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم خاتمهم ، وقفى على آثاره بعلماء مخلصين فلا حاجة إلى ابتداع أسماء أو صفت لم يأذن بها الله .

ألا ترى كيف يتجلّى الإلوري بروح التّواضع لله تعالى إذ لم يعتد بما قام به ، وهي جهود عظمت في نفوس العلماء العباد والنساك الصالحين ، وكبرت في أعين الأمراء والسلاطين والحكام علية القوم المخلصين سواء في داخل البلاد وخارجها ، ولم يترددوا جميعا أن يقرنوها بما يقوم به غيره من الدعاة الخيار على اختلاف الأزمنة والأمكنة[2] .

---

(1) ومن ذلك أن الزمخشري أورد في قوله تعالى: «ذو الجلال والإكرم» أن الرسول ﷺ مرّ برجل وهو يصلّي يقول : يا ذا الجلال والإكرام ، فقال له طه ، قد استجيب لك. انظر:الكشاف ، ٤/٤٦.

(2) ومن ذلك كلمات الوفود ، والأمراء ، والسلاطين في مناسبات عديدة ، ومن بينها ما جاء على ألسنة السفراء في أعياد أربعة عقود من تأسيس المركز الميمون . انظر الكتاب : المركز في العام الأربعين» وفي تقاريظ على كتبه.

وإذا أبقى لنا قولا هنا عن الالتزام عنده فإنّه قد غلب جانب الرجاء على الخوف حيث صرّح به ، وأطنب فيه إطنابا محمودا يؤتي أجزاء الفكرة حسن التأكيد ودقّة التكرار ، وروعة الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال ، ذلك بأنّ الله لم يخلق العباد إلاّ للإحسان تفضّلا منه ، وجعل الرحمة سابقة على العقاب ، وواسعة كلّ شيء ، والخير عنصر جوهري ثابت ، والشرّ عارض مريض ، ومتى قوم صعره استقام ، وهو جل ثناؤه يقول : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ (السجدة:٧). بينما كنّى عن الخوف ، واختصر فيه ليطابق ما في قلبه لتكفير ذنوبه وستر عيوبه ، ولأن حسن التأدّب مع الله وإيثار رجائه على خوفه مهما يكن الأحوال والأهوال ، فإذا أعرض الشاعر عن الرهبة بهذا الشّكل فهو يؤكّد جانب الرغبة والأمل ، ولأنّ الخالق ركّب الإنسان على غلبة صفة الخير ، وهو ضعيف العزم على مقاومة غوائل الشرّ .

أما الخصائص الفنيّة ، فنرى أنّ الشاعر هنا قد مال إلى السهولة في الألفاظ ، لأنّ التوفيق بين القوّة لإيقاظ انتباه القارئ وحمل عقله على المعاني ، وتبين الرقة وبعث العاطفة الصادقة ، وإلباس الأفكار حللاً فاخرة كثيرا ما تتقاصر عن الأسباب لكلتا الصفتين ، وليس على الأديب أن يلتزم حدود الصعوبة والمتانة دائما ، بل أولى به أن يلين أحيانا حتى يقرب أسلوبه إلى المخاطبين ، فلا جرم على الشاعر إذا كانت الألفاظ التي استعملها ملائمة للفكرة التي تحويها ، فجاءت التراكيب على الصورة التي تجرى معانيها ، ومن ذلك بناء الأبيات الأربعة الأولى على أسلوب النداء القريب في مقام البعيد ، لعلوّ شأن المولى وعظمة قدره في النفوس ، يروق هذا الأسلوب في مواطن استغاثة العبد ببارئه لما له من مظان الزلفى ، وما يقرّبه إلى رضوانه ، ومنازل المقرّبين ، تحريضا لنفسه ، وإقراراً عليها بالتفريط في جنب الله مع فرط التهالك على استجابة دعوته ، والأذن لندائه وابتهاله ، وفي تقديم النداء على سائر أخواته إيحاء إلى

أنّ تقديم الوسيلة المبرّرة أدعى إلى الإجابة ، ومن السمات اللطيفة في القصيدة جودة التخصيص بعد التعميم مع حسن مواقع التعريف في قوله :

يا خالق الأرض والسما … يا رازق الطير والجنين

يا واهب الأمر بالحيا … يا قابض الروح بالمنون

يا خالقي يا رازقي … اختارني في العالمين

وفي الإضافة إلى المعرّف بلام الجنس لدلالة عموم النعمة ، وسعة الخير من الله جلّ شأنه ، وشدّة التلذّذ بذكره ، والثناء عليه ، والتمجيد له ، إذ لا قادر يقدر على نشر نواله وآلائه إلاّ الله ، وفي إيثار ضمير المتكلّم المفرد للتخصيص والخروج من غرض إلى غرض آخر ، بيان وتقدير لمنة الله عليه ونعمته ، وهي أن اختاره المولى لشرف المهمة ، وهو آية في الغايات لقصوى دالة على الإبانة عن شكر المولى وإيفاء لعبوديته ، ودماثة خلقية عالية يعدها السالكون درجة وفضيلة ، لأنّ قلوبهم تنماث في حبّ مدبّر أمورهم وهيامه ، فيدفعهم الشوق إلى أن يترقّوا إلى باب الإحسان عنده .

ومن الملامح الفنيّة القويّة روعة التكرار التي تدعو إلى بذل العناية بالموضوع ، وإلى لفت النظر فيه ، ومراعاة الحسن في دقة وقوعه ، وأداء المعنى ، لاسيما موطن « كم » الخبرية ، في قوله :

كم من بلايا كم من خزايا … كم من رزايا كم ما يهين

حلّت عليّ من الأعادي … من كافرين وحاسدين

وتكرر « كم الخبرية » لتكثير وجوه ما سدّده الأعداء عليه من الاضطهادات والمعاناة كثرة يستحيل إحصاؤها ، ولكنّ الله كفاه أشرارها ، وفي التعبير بالجمع في المميز ، لأنّ المقام استعظام وإكبار من شدائد عاناها ، وفي تكرار « خالق » و« رازق » في الأبيات الثلاثة إيحاء إلى أنّهما أصل رحمة الله وأوسع دائرة النعم ، وفي استعمال صيغ التفضيل في وجود عدّة ، من نحو : (وهو

أرْحَم الرّاحمين ، وأصدق القائلين ، وأعلم العالمين ، وأكرم الأكرمين) ، لمبالغة استحقاق الله جلّ جلاله الجبروت ، وإفراده في الوصف بالرحمة ، والعلم ، والكرم ، والصدق ، لأنّ المخلوق مهما اتّصف بصفة منها ، فإنّها عارية مسترجعة ، وماذا يملك الخلق بجانب خالقهم ، فهو الذي أنشأهم من العدم ، والعالم بأسره تحت تصرف ملكه ، ومن الأريحية براعة التفصيل لما أجملته السابقة من حيث تنويع أسماء الله جلّ شأنه وصفاته ، فقد أقام هذه الخاصية لتنزيل الأبيات الأربعة الأولى إجمالا وما بعدها تفصيلا ، وناسب أن يقع ذلك لحقّ البيان في تعداد وجوه النعم ، وكشف نقابها ، وحين يميل إلى أسلوب الربط لبناء سؤال يجعل ما بعده جوابا على بلاغة الوصل الرائع الذي يأبى ذكر أداة العطف ، وتبهرك منه دقّة الترتيب بين أجزاء النصّ ، وتفعيل جودة التنسيق بين السوابق واللواحق على صورة يمتنع إبدال بعضها من بعض ، أو تقديم ما أخره على سنن تحدث الوحدة المتماسكة ، فقدّم على الإنشائية النداء ، لأن المقام طلب مزيد من النعم ، وحقّ أن يقع أسلوبا لما لم يتمّ تحقيقه ، ثم أردفه بالخبر لإقرار ما ثبت من الآلاء ، بمعنى أنّ من اقتدر على إبداع شيء كان أعظم اقتدار على المضاعفة والموالاة ، وعندما يرتّب فعل « صار » على « كان » في قوله :

كنت جهولا صرت فقيها ... بكشف أعلم العالمين
كنت ذليلا صرت عزيزا ... بفضل أكرم الأكرمين
كنت فريدا صرت عديدا ... يا ليت قومي يعلمون

لأنّ وفاء الأسلوب الفني أن يأخذ بعضه بحجز بعض ، يقول العربي : « فالخوافي قوة للقوادم » ، ونوازل الخير تزيل قواعد الشرّ ، فوقعت الأولى بيانا يؤدى معنى الأصل الماضي أثره ، والمنقطع أوانه ، والأخيرة للصيرورة والتنقّل إلى ما هو أثبت وأدعى للاستقرار والتمكّن ، وليس أدلّ على التعبير منها في مقام نسخ الأحوال الأهوال حين يرى العبد أنّ جلّ شأنه قد رفعه من فوضى

الجهالة إلى مجد الحضارة ، ومن ضعة الذلّ إلى عظمة العزّة ، ومن ضعف القلّة إلى قوة العدّة والكثرة .

أما الصورة البيانية ، فإنّه قد عمد إلى طائفة مما وسعه الله عليه من لطائف التصوير ، ورشاقة الإبداع ، وأبرز ذلك روائع الاقتباس الغزيرة التي تعبّر عن قوّة التوكيد في أنحاء النصّ ؛ إذ كلام الله ورسوله يتسمان بقدرة استجابة الناس لما لهما من ذخيرة بلاغيّة تخلق ميلا للقلوب وإقناعا للنفوس ، ولا تقلقنا هذه الكثرة إذ احتوت من وجوه هذه تؤدي أغراضا ملائمة تزيد من جمال النص ، ومنها ما يدلّ على التنسّك والزهد فيما يجلب على المرء البلاء في قوله :

يا من يراني ولا أراه وهو يجيب المضطرين

اقتباسا من قوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام:١٠٣) . وقوله تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ (النمل:٦٢) .

وتجامعه المقابلة وحقّها البلاغي أن ترسم قانون تداعي الخواطر ، حتى تتماسك أجزاء الكلام ، وتترابط وحدات الأغراض ، ومنه وقوع البيت براعة مقطع القصيدة ، وما أجلّه فنيّة رائعة عند البيانيّين حين يحسن موقعه سليما من التكلّف والتعسّف ، وما جاء للتضرّع والتذلّل لله تعالى :

كنت ذليلا صرت عزيزا بفضل أكرم الأكرمين

اقتباساً من قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الأنفال:٢٦) .

وهو إبداع يجود ويقوى في بيان الاستقامة على الطاعة والتواضع لله تعالى ، وبهذا تظلّ العقيدة الإسلامية على صفائها ونقائها في قلب كلّ مؤمن . ومن بدائع القصيدة ، وقوع المذهب الكلامي في قوله :

وإن نبذوا كلّ آية فإنهم سوف يسألون

والبيت حجّة قويّة حيث نزل ما قبله مقدّمات يقينية ، والشاعر يحتاج إلى إقامة دليل قوي لما خمد ذكاء المخاطب ، ولم يحمل الكلام على الاقتناع ، أو كان الحسد يخلب عقله ، وما أكثر هذا المقام داعيا إلى تقوية وتوكيد لإبطال الإنكار الشديد ، ودفع الإجحاد العنيد ، وقد فترت اليقظة عن إدراك الحقيقة الواضحة ، ومن التعبير الجيّد بالمذهب الكلامي قوله :

فامنن عليّ بمثل هذا فضلا بسلطانك القمين

بمعنى أنّه إذا ثبت أنّ الله قد امتنّ على فئة ممن قبلنا بنور الإيمان بالله وبرسله ، ولم يكلفهم بشريعة أمرا ، أو نهيا تفضّلا منه ، فأدخلهم الجنة بغير حساب امتنانا عليهم كان حقا لأمّة رسول الله ﷺ ، وإذا استحقّ هذه النعمة سائر المؤمنين ؛ صحّ وروده لكلّ فرد من أفرادهم ، وإذا استقرّ لهم جميعا ثبت للشاعر ذاته ، وما ذلك على الله بعزيز ، ويخلع السجع على النصّ خصائص ومزايا تهب الكلام رونقا لما يحدثه من وحدة متناسقة في نحو قوله :

كم من بلايا كم من خزايا كم من رزايا كم ما يهين

فانسجام الحروف وحلاوة جرسها وائتلاف الكلمات ، وتناسب الموسيقى بحرا مستحدثا على قول الشاعر بأنّها مبنية على تفعلة : « مستفعلن فاعلن فعولن » ، إلاّ أنّها تصادف مجزوء البسيط ، أو مجزوء الرجز ، وإن تخللتها في بعض أبياتها علل ، وكلا البحرين يناسب المقام وهو خطاب يحتاج إلى ما يجاوب أذواق العامّة ، غير أنّه لم يصل إلى الإسعاف والابتذال لغرض التبسيط والتسهيل ، أو التجديد والتحديث ، أو على هدف التحرّر المطلق من كلّ قيود ، وزاد جمالها وقوع قافيتها نونية ، فدامت على الجمال والروعة وحدتها ورنينها دون خروج على التقاليد العربية في سنتها العريقة .

اللهم إلاّ أنّ الميل الشديد في تقريب القصيدة إلى أذواق السواد الأعظم قد أدّى إلى ارتكاب ضرائر عدّة في كثير من أبياتها ، فكانت سببا هاما في قلّة رونقها ، وجلّ الله الذي ينتهي إليه وحده الكمال والتمام .

* * *